



الْقَلْبُ

قولتير

القلادة

قصة شرقية
نقلها إلى العربية
الدكتور طه حسين

الشاعر

www.books4all.net

دار العالم للملايين

ص ب ١٠٨٥ بيروت

العنوان الأصلي للقصة بالفرنسية

ZADIG

ou la Destinée
Histoire Orientale

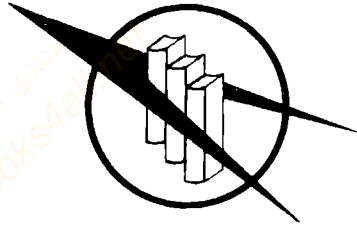
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع ستار اليان - خلف مكتبة الحلو

صه ١٠٨٥ - تلفون: ٣٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩

برقيا: مئلاين، الكلى: ٢٣١٦٦ مئلاين

بيروت - لبنان



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

بيروت ، نوار (مايو) ١٩٦٠

الطبعة الخامسة

شباط (فبراير) ١٩٨٢

مقدمة

هذه قصة من قصص فولتير التي عني فيها ببعض المشكلات الفلسفية العليا التي شغلت الناس دائماً . وشغلت الفرنسيين بنوع خاص أثناء القرن الثامن عشر، وهي مسألة القضاء والقدر ، ومكان الانسان وإرادته منها ، وما أريد أن أتعقق قضية القضاء والقدر في نفسها ، ولا أن أتعققها بالقياس الى الفلاسفة والمثقفين الذين عاصروا فولتير ، ولا أن أتعققها بالقياس الى فولتير نفسه . فنحن في فصل الصيف ، وهو فصل لا يحتمل مثل هذا البحث الذي يكلف الكاتب والقارئ من العناء ما يحتاج الى حياة رائعة شائقة يستحب فيها النشاط ولا يشق فيها الجهد الذهني

وأنا بعد ذلك لم أفكر في تقديم هذه القصة الى القراء في هذا الفصل الشديد إلا لأريح الزملاء الذين يشاركون في تحرير هذه المجلة ، والقراء الذين يفضلون بقراءتها ،

« يقصد الدكتور طه حسين بالمجلة مجلة « الكاتب المصري » التي نشرت فيها الترجمة في المرة الاولى .
الناشر

من تكليف انفسهم عناء الجهد في الكتابة والجهد في القراءة
اثناء فصل القيظ ، والراحة حق للكتاب كما هي حق
للقراء . ولكن الراحة ألوان وأشكال ، فهناك الراحة التي
يستمتع بها الانسان حين لا يعمل شيئاً ، وهي راحة
بغیضة لأنها عقيمة لا تنفع صاحبها ولا تنفع الناس .
وهناك الراحة التي يستمتع بها الانسان حين يتجه من العمل
الى ما يمتعه ويمتع الناس دون ان يشق على نفسه وعليهم ،
وهذه هي الراحة الحصبة التي يدل لفظها على معناها
دلالة صادقة ، والتي تعصم الانسان من الفراغ الفارغ
الجدب الذي يميت القلوب ، وهي الراحة التي تلائم المثقفين
من الكتاب والقراء جميعاً . فالرجل المثقف لا يبغض شيئاً
كما يبغض الفراغ الجدب العقيم ، والراحة بالقياس اليه هي
الانتقال من عمل مجهد مضمن الى عمل يجمع بين التسلية
والمتاع . والى هذه الراحة قصدت حين فكرت في أن
أعفي محرري هذه المجلة من إنشاء بحوثهم المضية ،
وقراءها من العكوف على تفهم هذه البحوث ، وفي أن
أعفي القراء في الوقت نفسه من الفراغ الذي كانوا قد
يضطرون اليه ساعات من نهار أو أياماً من شهر لو لم
تقدم اليهم المجلة شيئاً ، وفي أن أترجم لهم آية أدبية
رائعة يجدون في قراءتها ما يرضي حاجتهم الى التفكير ،
وحاجتهم الى الراحة ، وحاجتهم الى المتعة الأدبية الرفيعة

في وقت واحد وأنا أحد الألف أو الملايين من الناس - إن حسن ظننا بالناس - الذين يعجبون بأدب فولتير ، ويتعجبون بهم الإعجاب إلى الفتنة في كثير من الأحيان ، لأن هذا الأدب لم يكتب له الخلود فحسب ، وإنما كتب له الخلود والشباب جميعاً . أو قل كتب له الخلود والشباب وملاءمة الحياة الإنسانية على اختلاف العصور والبيئات والأجيال . ولن أقدم الدليل على شيء من ذلك ، فقد فرغ التاريخ الأدبي من إقامة الدليل عليه ، وهذه القصة نفسها ستدل عليه في وضوح وجلاء وإقناع . وما أظن أن القراء يكلفوني أن أوثرهم بشيء لا أوثر به نفسي أو أن احتمل في سبيلهم من الجهد والمشقة ما لا أحب أن احتمله في سبيل نفسي

وقد قرأت هذه القصة مرات توشك أن تبلغ عشرًا ، وأكبر الظن أنني سأقرأها وأقرأها ، وقد وجدت فيها وسأجد فيها دائماً متعة العقل والقلب والذوق . فإذا قدمتها إلى القراء فقد آثرتهم بما أوثر به نفسي ، ولم يظلمك من سوى بينك وبين نفسه .

وقد كتب فولتير هذه القصة حين كاد القرن الثامن عشر يتتصف سنة ١٧٤٨ وتكلف فنوناً من الجهد والحيلة لطبعها خارج فرنسا ولينشرها في فرنسا بعد ذلك ، وليستأنف طبعها في فرنسا . ولولا ضيق الوقت ، وإني في باريس مشغول بما يشغل به الإنسان حين يلم بباريس

ليقيم فيها وقتاً قصيراً وليرحل عنها بعد ذلك - لولا هذا
لقصصت على القراء من جهد فولتير وحيلته في نشر هذه
القصة ، ثم من جحوده إياها وتصله منها مخافة ان تجر
عليه شراً ، ما فيه كثير من الفكاهة والتسلية . ولكني
أرجو أن أعود الى هذا كله في وقت قريب .

وقد مرّ بفولتير طور من أطوار حياته الأدبية قرأ فيه
ترجمة « الف نيلة ولبلة » ، فشاقته وراقته ووجهته الى
دراسة أمور الشرق ، فغرق في هذه الدراسة الى أذنيه ،
وأخرج للناس قصصاً شرقية بارعة كثيرة ، منها هذه
القصة . وأرجو ان يتاح لي أن أترجم لقراء العربية طائفة
من قصصه الشرقية الأخرى .

وبطل هذه القصة فتى من أهل بابل ، يسميه فولتير
زديج ، ونسبه نحن صادقاً . وقد كدت أضع صادقاً
مكان زديج في القصة كلها ، ولكني آثرت ان احتفظ
لفولتير باسم بطلسه كما اراد هو ان يكون . وهذا الفتى
البابلي المثقف الممتاز قد اختلفت عليه الاحداث وتعرض
لكثير من المحن في وطنه أولاً وفي الأوطان التي تغرب
فيها بعد ذلك . في مصر وفي بلاد العرب وفي جزيرة
سرنديب وفي سوريا ، وكانت هذه الأحداث والمحن
كلها مخالفة لمنطق الأشياء وطبيعة الحياة كما يراها الناس ،
فقد كان يكافأ بالشر على الخير دائماً ، وكان يستقبل
ذلك بالحيرة والإدعان وبالصبر والاحتمال ، حتى كوفىء

آخر الامر بما يلائم ذكائه ووفائه وثقافته وبراعته وصبره واحتماله فأصبح ملكاً على الدولة البابلية العظمى .

ففي القصة إذن عرض لمشكلة القضاء والقدر كما يتصورها الشرقيون ، او كما خيل لفولتير ان الشرقيين يتصورونها وفيها حل لهذه المشكلة على نحو ما تصوره الفلاسفة منذ اقدم العصور ، وهو هذا الحل الذي لا يحل شيئاً ، والذي يلخص في أن الانسان أقصر عقلاً وأكثر ذهنياً من ان يفهم حكمة الخالق الذي أبدع العالم ووضع له ما يدبره من القوانين . فما عليه الا ان يكذب ويجحد ويعمل الخير ما وسعه ان يعمل الخير ، ويجتنب الشر ما أتبع له أن يجتنب الشر ، ولا عليه بعد ذلك أن يسره الأيام أو تسوئه وان تسخطه الأحداث او ترضيه .

ولكن في القصة أشياء أخرى غير هذا العرض الفلسفي لمشكلة القضاء والقدر ، هو الذي أتاح لها الخلود ، وهو نقد الحياة الانسانية من ناحيتها السياسية والاجتماعية والحلقية والنفوذ بهذا النقد الى صميم الطبيعة الانسانية ، وما ينشأ عن احتمالها للحياة وتصرفها فيها من الخطوب . وواضح جداً ان فولتير قد اتخذ قصته هذه كلها وسيلة الى نقد الحياة الاوروبية عامة والحياة الفرنسية خاصة ، واتخذ مدينة بابل رمزاً لمدينة باريس ، وقصر بابل رمزاً لقصر باريس ومن أجل هذا أشفق من نسبة هذه القصة . ومن أجل هذا فتن الفرنسيون هذه القصة في

عصر فولتير . وما زالوا ينتنون بها الى الآن ، ومن أجل هذا أعتقد أن قراء العربية سيجدون في قراءة هذه القصة ما يلائم حاجتهم الى نقد الحياة الانسانية من ناحية السياسة والاقتصاد والاجتماع فليقرأوا ، وليتفكروا ، وليتذكروا وليستريحوا الى القراءة والتفكير والتذكر ، ثم ليتفكروا بعد ذلك بما يقرأون وما يتفكرون وما يتذكرون .

طه حسين

رسالة إهداء قصة زديج

الى السلطنة شعرا

من سعدي

في الثامن عشر من شهر شوال سنة ٨٣٧ هجرية

أي بهجة العيون ، وعذاب القلوب ، ونور العقول ،
لن أقبل تراب قدميك لأنك لا تكادين تمشين ، أو لأنك
إنما تمشين على بسط إيران او على الورد . اليك أهدي
هذه الترجمة لكتاب ألفه حكيم قديم أتاحت له سعادة
الفراغ فسلى نفسه بإنشاء قصة زديج . وهي قصة تقول أكثر
ما يظهر أنها تقول . وأتوسل اليك ان تقرئها وتقديرها .
فمع أنك في ربيع الحياة . ومع ان اللذات كلها تسعى
اليك ، ومع انك حسناء ، وان ذكائك يضيف الى جمالك
جمالاً ، ومع أن الثناء عليك متصل منذ يقبل الليل الى
ان يسفر الصبح ، وأن من شأن هذا كله ان يباعد بينك
وبين القصد ، فأنت على رغم هذا كله راجحة العقل

مَرَفة الذوق ، وقد سمعتك تتحدثين فإذا أنت أَرَجِح عقلاً
من الدراويش ذوي اللحى الطوال والقلائس المحددة ..
وأنت رفيقة لا تحبين الارتياب ، وأنت رقيقة دون أن
تنتهي بك الرقة الى الضعف . وأنت محسنة مع العلم
بمواضع الاحسان . وأنت تحبين اصدقاءك ولا تتعرضين
لعداوة أحد . وأنت لا تزينين عقلك ببهرج الغيبة ،
وأنت لا تقولين السوء ولا تأتينه على كثرة ما يدعوك الى
ذلك . ثم ان نفسك قد ظهرت لي دائماً نقية نقاء حسنك
بل إن لك حظاً يسيراً من الفلسفة حملني على ان اقدر
انك ستؤثرين اكثر من غيرك هذا الكتاب الذي ألفه حكيم .
وقد كُتِب أول الأمر في اللغة الكلدانية التي لا تفهمينها
أنت ولا افهمها انا ، ثم ترجم الى العربية ليتلها به
السلطان المعروف اولوج بب . كان ذلك في الوقت الذي
أخذ العرب والفرس فيه يكتبون « الف ليلة وليلة »
و « الف نهار ونهار » .. وكان اولوج يؤثر قراءة زديج
على حين كانت السلطانات يؤثرن قراءة ألف وواحد ،
وكان اولوج الحكيم يقول لمن « كيف تؤثرن قصصاً
لا مغزى لها ولا تدل على شيء ؟ » وكن مجبته :
« لهذه العلة نفسها نحب هذه القصص » .
وانا أزعم انك لن تشبهين ، وانك ستكونين اشبه
شيء بأولوج .. بل انا ارجو ان أجسد لحظة قصيرة
اتحدث اليك أثناءها فيما يلد العقل حين تسامين الأحاديث

العامّة التي تشبه الألف والواحد ، على أنّها أقلّ منها تسليّة
وتلهية.. ولو قد كنت تالستريس التي عاشت أيام الاسكندر
ابن فيليب ، أو ملكة سبأ التي عاشت أيام سليمان ،
لسمي اليك هذان الملكان .

واني اضرع الى الفضيلة الساوية أن يكون نعيمك
صفواً وحسنك باقياً ، وسعادتك خالدة .

سعدي

الفصل الأول

الأعور

كان يعيش في بابل أثناء حكم الملك مؤبدار ، فنى
يسمى زديج ، وقد فطر على طبع كريم زادته التربية
كرماً كان غنياً ، وكان في ريعان الشباب ، ولكنه
كان على ذلك يعرف كيف يكبح جماح شهواته ؛ لم يكن
يتكلف ، ولم يكن يحرص على ان تكون له الكلمة الاخيرة
دائماً ، وكان يعرف كيف يقدر ضعف الناس وكان
الناس من حوله يدهشون لأنهم لم يروه قط ، على ما كان
يمتاز به من الذكاء ، يهزأ بهذه الغامضة المتنافرة
الصاحبة ، ولا بهذه الغيبة الجرثيمة ، ولا بهذه القرارات
الجاهلة ، ولا بهذه السخافات الفجة ، ولا بهذا الضجيج
الباطل ، مما كان أهل بابل يسمونه حديثاً ، وكان قد
تعلم من الكتاب الاول من آثار زرادشت ان الاعتداد

بالنفس كرة نفختها الريح ، فأيسر ثقب فيها يخرج
 منها زوابع . وكان من أخص صفات زديج انه لم
 يكن يفاخر بازدراء النساء او اختلاهن . وكان كريماً
 لا يكره ان يحسن الى الجاحدين ، يتبع في ذلك هذه
 الحكمة البالغة من حكم زرادشت : « إذا أكلت فأطعم
 الكلاب ، وإن أغراها ذلك بعضك » . كان حكيماً
 كأحسن ما يكون الحكيم ، لأنه كان حريصاً على معاشرة
 الحكماء . عرف علم القدماء من الكلدانيين ، فلم يكن
 يجهل أصول الطبيعة التي كانت تعرف في ذلك الوقت ،
 وكان يعرف ما بعد الطبيعة ما عرف الناس في كل عصر ،
 أي قليلاً من الاشياء . وكان مقتنعاً كل الاقتناع بأن العام
 يشتمل على خمسة وستين وثلاثمائة يوم وربع يوم ، على
 رغم الفلسفة الجديدة في عصره . وبأن الشمس هي مركز
 الكون . وكان يؤثر الصمت في غير غضب ولا ازدراء
 اذا قال له كبار الكهنة انه سيء العقيدة ، وان من
 الخروج على الدولة ان يعتقد الانسان ان الشمس تدور
 حول نفسها ، وان العام يأتلف من اثني عشر شهراً .
 وقد اعتقد زديج ان من الممكن ان يكون سعيداً ،
 فقد كان يملك ثروة ضخمة ، وكان له من اجل ذلك
 أصدقاء كثيرون ، وكان جيد الصحة ، رائق الوجه ،
 مستقيم العقل ، معتدل المزاج ، له قلب مخلص نبييل ،
 وكان يزمع التزوج من سمير التي كانت تمتاز من فتيات

بابل جميعاً بمولدها وجهالها و ثروتها ، وكان يعطفه عليها
 ميل نقي متن ، وكانت هي تحبه حباً عنيماً ، وكانا
 يدنونان من اللحظة السعيدة التي كانت ستجمع بينهما ،
 ولكنها ذات يوم كانا يتنزهان معاً عند باب من أبواب
 بابل في ظلال النخيل التي تزين شاطئ الفرات ، وإذا
 هما يريان رجالاً يقبلون عليها مسلحين بالسيوف والسهام ،
 وكانوا نفرأ من أتباع الفتى اوركان قريب أحد الوزراء ،
 الذي خيل اليه متملقو قريبه الوزير ان كل شيء مباح
 له . ولم يكن على شيء من ظرف زديج او خلقه ،
 ولكنه كان يرى نفسه خيراً منه ، وكان مغيضاً محققاً لأنه
 لم يكن آثر عند الناس من زديج . وقد خيلت اليه هذه
 الغيرة التي لم تأته الا من الغرور انه يحب سمير . وقد
 اختطفها أتباعه وكانوا من العنف بحيث آذوها ببعض
 الجراحات ، وأسألوا بذلك دم حساء كان منظرها وحده
 خليقاً ان يشيع الحنان في اعمار جبل اعمابوس ، وكانت
 تشق السماء بصيحات الشكاة ، وكانت تدعو : « أي
 زوجي العزيز لاني انتزع انتزاعاً من أحب الناس إلي » .
 لم يكن يشغلها ما كانت تتعرض له من الخطر لأنها لم
 تكن تفكر الا في زديج العزيز . وقد دافع عنها زديج
 بما تتيح الشجاعة والحب من قوة ونجدة ، ولم يكن
 يعينه إلا عبدان من رقيقه وقد هزم المغيرين مع ذلك ،
 ورد سمير الى دارها دامية مغشياً عليها ، فلما أفافت

فتحت عينها رأت محررها ، فقالت له : « أي زديج
لقد كنت أحبك حب الزوج ، فأما الآن فإنني أحبك كما
أحب من أنا مدينة له بالشرف والحياة . » ولم ير الناس
قط قلباً أشد تأثراً من قلب سمير ولا رأى الناس قط فماً أشد
سحراً يعرب عن شعور ساحر بألفاظ من نار يملئها
الاعتراف بالجميل والاندفاع في الحب الذي يملأه الحنان
من فيها ، وكان جرحها يسيراً ، فبرئت منه في وقت
قصير . أما جرح زديج فكان أشد خطراً ، أصابه سهم
قريباً من إحدى عينيه فأحدث جرحاً عميقاً . ولم تكن سمير
تطلب إلى الآلهة إلا شفاء عشيقها . وكانت عينها غارقتين
في الدموع آناء الليل وأثناء النهار ، وكانت تنتظر الوقت
الذي تستطيع فيه عينا زديج ان تستمعا بتلقي لحظها ،
ولكن دملاً ظهر في العين الجريحة فأنذر بخطر عظيم .
فذهب الرسل وأبعدوا حتى وصلوا الى منفيس يدعون
الطبيب العظيم هرمس الذي أقبل تحفُّ به حاشية ضخمة .
وقد فحص المريض ثم أعلن انه سيفقد عينه . وتنبأ حتى
باليوم والساعة اللذين ستقع فيها هذه الكارثة ، قائلاً :
« لو قد أصاب الجرح عينه اليمنى لأبرأته ، أما جراحات
العين اليسرى ، فليس لها شفاء . » وقد رثت بابل كلها
لزديج وعجبت مع ذلك بما امتاز به هرمس من علم
عميق ، ولم يمض يومان حتى انفجر الدم من تلقاء نفسه
وبرىء زديج برءاً تاماً . هنالك ألف هرمس كتاباً أثبت

فيه انه لم يكن من حق زديج ان يظفر بالشفاء . ولم يقرأ زديج هذا الكتاب ، ولكنه لم يكذ يستطيع الخروج من داره حتى تهباً لزيارة تلك التي كانت معقد أمله في السعادة ، والتي كان حريصاً من أجلها وحدها على ان تكون له عينان . وكانت سمير قد ذهبت الى الريف منذ ثلاثة أيام . وقد عرف زديج في طريقه اليها ان هذه الحساء لم تكذ تعلم ان حبيبها قد يفقد احدى عينيه حتى أعلنت انها لا تطيق العور وتزوجت اوركان من ليلتها تلك . فلما نمي اليه هذا الخبر خراً مغشياً عليه وانتهى به الألم الى حافة القبر ، وقد طالت علته ، ولكن العقل تغلب على الحزن ، بل وجد شيئاً من العزاء في قسوة ما عانى من الآلام .

ثم قال لنفسه : « أما وقد لقيت هذا الجموح القاسي من هذه الفتاة التي نشأت في القصر ، فسأخذ لي زوجاً من بيئات الشعب » . فاختر أزورا وهي أحكم بنات المدينة وأحسنهن مولداً فاقرن بها وعاش معها شهراً ملؤه العطف والحنان . ولكنه لاحظ فيها شيئاً من خفة وميلاً شديداً الى الاعتقاد ان أعظم الشبان حظاً من الجمال هم أصحاب الحظ العظيم من الفضيلة والذكاء .

الفصل الثاني

الأنف

وذات يوم أقبلت أزورا من نزهتها ، غاضبة ثائرة ،
صاحبة ، قال لها : « ما بك يا زوجي العزيزة ؟ وما
عسى ان يخرجك من طورك الى هذا الحد ؟ » قالت :
« واحسرتاه ! لو رأيت المنظر الذي رأيته لهاجك ما
يهيجني من الغضب . لقد ذهبت أعزي الأرملة الشابة
خسرو التي أقامت منذ يومين اثنين قبراً لزوجها الشاب .
وقد عاهدت الآلهة أثناء حزنها على ان تقيم على هذا القبر
ما جرى ماء هذا الجدول قريباً منه . » قال زديج :
« هذه امرأة كريمة قد أحبت زوجها حقاً . » قالت
أزورا : « آه لو عرفت ما كان يشغلها حين زرتها ! »
« ماذا كان يشغلها اي أزورا الحسناء ؟ » -- « كانت تحول
الجدول عن مجراه » ثم اندفعت في لوم طويل وهجاء عنيف
حتى ضاق زديج بهذه الفضيلة المتكلفة .

وكان له صديق اسمه كادور ، وكان من بين هؤلاء الشبان الذين كانت أزورا تؤثرهم لأنهم على حظ عظيم من الأمانة والكفافية . فأظهره على جليلة أمره ، واستوثق من وفائه بما أهدي إليه من هدايا قيمة . ومضت أزورا لتتفق عند إحدى صديقاتها في الريف يومين ثم سادت في اليوم الثالث الى دارها وهناك أعلن اليها الخدم وهم يتحجبون ، ان زوجها قد مات فجاءة من ليلته تلك ، وأنهم لم يجرؤوا على ان يحملوا اليها نبأ الفاجعة حيث كانت تستجم ، وأنهم قد فرغوا الآن من دفن زديج في قبر أسرته هناك في طرف الحديقة . فأجهشت بالبكاء وانتزعت شعرها ، وأقسمت لتتضمين على نفسها بالموت .. فلما كان المساء استأذنها كادور في ان يتحدث اليها فبكيا معاً . فلما كان الغد بكيا أقل مما بكيا أمس وجلسا معاً الى الغداء ، وأسر اليها كادور ان صديقه أوصى اليه بمعظم ثروته ، ثم لمح لها بأنه يرى السعادة في ان يقاسمها ثروته . هنالك بكت السيدة ثم غضبت ، ثم لانت ، وكان العشاء أطول من الغداء ، وكان الحديث أدنى الى الثقة ، وأنتت أزورا على الفقيد ، ولكنها اعترفت بأنه لم يخل من بعض العيوب التي برىء منها كادور .

وفي أثناء العشاء شكها كادور ألماً عنيفاً في الطحال ، فقلقت السيدة واهتمت ، وأحضرت كل ما كان عندها من طيب ، اعلمها تجدد من بينه ما كان فيه شفاء للطحال

وأسفت أشد الأسف لأن هرمس العظيم لم يطل الإقامة في بابل ، بل تفضلت فلمست موضع الألم من جسم كادور . وقالت له في عطف : « أعرضة أنت لهذا الألم ؟ » قال كادور : « إنه ألم يدينني غالباً من القبر ، وليس له فيما علمت الا دواء واحد يستطيع ان يرفه علي ، وهو ان يوضع على جنبي أنف رجل مات من أمسه . » قالت أزورا : « يا له من دواء غريب . » قال كادور : « ليس أغرب من توائم السيد أرنو^(١) التي يعالج بها الفالج » . وكان هذا الرد مضافاً الى كفاية هذا الفتى مقنعاً آخر الأمر للسيدة . قالت : « وأخيراً إذا عبر زوجي من حياة أمس الى حياة غد على جسر تشينافار ، فلن يرده الملك عزرائيل عن العبور لأن أنفه أقصر قليلاً في حياته الثانية منه في حياته الأولى » . ثم أخذت موسى ومضت الى قبر زوجها فسقته بدمعها ، ثم دنت تريد أن تجدع أنف زديج الذي رأته مستلقياً في قبره . هنالك ينهض زديج حامياً أنفه بإحدى يديه ، راداً الموسى باليد الأخرى ، قائلاً : « سيدتي لا تلومي الأرملة خسرو فالتفكير في جدع أنفي كالتفكير في تحويل الجدول عن مجراه . »

١ كان يعيش في بابل لذلك الوقت رجل يسمى أرنو وكان يداوي الفالج ويتبته بتائم تعلق في العنق .

الفصل الثالث

الكلب والجواد

وقد تبين زديج ، كما هو مقرر في كتاب زند ، ان الشهر الأول من شهور الزواج هو شهر العسل . وان الشهر الثاني هو شهر الشيخ ثم اضطر بعد قليل الى ان يطلق أزورا التي أصبحت بغیضة العشرة وطلب السعادة في درس الطبيعة وكان يقول : « ليس أسعد من رجل فيلسوف يقرأ في هذا الكتاب العظيم الذي نشره الله أمام أعیننا وهو الطبيعة فالحقائق التي يستكشفها القارىء خالصة له ، يغدو بها نفسه ويرفعها ويعيش هادئاً مطمئناً ، لا يخاف من الناس شيئاً ولا يتعرض لأن تدنو منه زوجه الرفیقة به لتجدع أنفه » .

وقد امتلأ بهذه الخواطر ، واعتزل في دار ريفية على شاطئ القرية . وفي هذه الدار لم يكن يشغل نفسه بحساب ما يجري تحت أقواس الجسور من الماء ، ولا ما

يسقط من خط مكعب من المطر في شهر الفأر أو في شهر
الشاة . ولم يكن يتخيل ان يتخذ الحرير من نسج العنكبوت
أو الخزف من حطام القوارير ، ولكنه درس في عناية
خصائص الحيوان والنبات ، ولم يلبث ان انتهى الى مقدار
من الفنتة أظهره على ألف من الفروق بين أشياء لم يكن
الناس يرون بينها الا تشابهاً

و ذات يوم كان يمشي قريباً من غابة صغيرة ،
فرأى خصياً من خصيان الملكة يسرع اليه ومن ورائه
جماعة من الضباط يظهر عليهم قلق شديد ويعدون هنا
و هناك ، كأنهم قوم حائرون يبحثون عن شيء عظيم
الخطر فقدوه . قال الخصي الاول : « ألم تر كلب
الملكة يا فتى ؟ » قال زديج في تواضع : « انما هي
كابة لا كلب » . أجاب الخصي الاول « صدقت » .
أضاف زديج : « انها كلبة صغيرة جداً وقد ولدت منذ
وقت قصير وهي تظلع برجلها الأمامية اليسرى . ولها
أذنان مسرفتان في الطول » . قال الخصي الأول مجهداً :
« فقد رأيتها اذن ؟ » أجاب زديج : « لا ، لم ارها
قط ، ولم اعلم قط ان للملكة كلبة » .

وفي الوقت نفسه بالضبط على نحو مما تجري عليه
المصادفات الغريبة أفلت أجمل خيل الملك من يد سائسه
وهام في سهل بابل . وأقبل كبير الساسة من ورائه
أصحابه يبحث عن هذا الجواد في لهفة تشبه لهفة الباحثين

عن الكلبة . وانجه كبير الساسة الى زديج يسأله : « أرأيت جواد الملك ؟ » قال زديج : « إنه أحسن الجياد ركضاً ، إنه يرتفع في الجو خمسة اقدام ، وان حذاءه صغير جداً ، وله ذيل طوله ثلاثة اقدام ونصف قدم ، وشكائهم لجامه من ذهب معياره ثلاثة وعشرون قيراطاً ، وسنابكه من فضة معيارها أحد عشر دانقاً » . قال كبير الساسة : « أي طريق سلك ؟ وأين يكون ؟ » قال زديج : « لم أره ولا سمعت به قط » .

فلم يشك كبير الساسة ولا الخصي الأول في ان زديج قد سرق جواد الملك وكلبة الملكة ، فقاده أمام جماعة القضاة الذين قضوا عليه بالجلد وبأن ينفق ما بقي من حياته في سييريا . ولم يكد الحكم يصدر حتى وجد الباحثون الجواد والكلبة ، واضطر القضاة في ألم الى ان يغيروا حكمهم ، ولكنهم قضوا على زديج بغرامة قدرها اربعمائة مثقال من الذهب لإنكاره رؤية ما رأى . ولم يكن بد من أداء الغرامة اولاً ثم يؤذن له بعد ذلك بالدفاع عن نفسه أمام القضاة ، وقد دافع عن نفسه قائلاً :

« يا نجوم العدل ، ويا كهوف المعرفة ، ويا مرابا الحقائق ، أنتم الذين لهم ثقل الرصاص ، وصلابة الحديد ، وإشراق الماس ، وكثير من خصال الذهب . اما وقد اذن لي الحديث امام هذه الجماعة الجليلة ، فأني أقسم بأورزماما ما رأيت قط الكلبة المحترمة التي فقدتها الملكة ، ولا الجواد

المقدس الذي فقده ملك الملوك . واليكم ما عرض لي :
« لقد كنت أنتزه قريباً من الغابة الصغيرة حيث رأيت الحصي
الجليل والسائس العظيم البعيد الصوت ، فرأيت على الرمل
أثر حيوان ، فتفرست في يسر أنها آثار كلب صغير .
ورأيت خطوطاً خفياً طويلاً قد طبعت على مرتفعات صغار
بين آثار الأرجل ، فعرفت أنها كلبة قد حفلت أطباؤها
فتدلت ، وانها لذلك قد ولدت منذ ايام . ورأيت آثاراً
في اتجاه آخر مجاورة لآثار الرّجلين الأماميتين ، فعرفت
ان للكلبة أذنين مسرفتين في الطول . ولاحظت ان الرمل
أقل تأثراً بإحدى الأرجل منه بالثلاث الأخرى فتيّنت ان
كلبة ملكتنا الجليلة عرجاء شيئاً ما ، إن أذن لي في ان
أتحدث على هذا النحو .

« اما جواد ملك الملوك ، فقد كنت أسعى في طرق
هذه الغابة ، فرأيت آثار السنايك لجواد ، ورأيتها كلها
تقع على مسافات متساوية فقلت لنفسي هذا فرس كامل
الركض . وكان تراب الشجر في طريق عرضها سبعة
أقدام قد زال عن يمين وشمال في ارتفاع قدره ثلاثة اقدم
ونصف قدم ، فقلت لنفسي : « ان لهذا الفرس ذيلًا
بهذا الطول قد أزال بخطواته التراب عن هذه الأشجار » .
ورأيت تحت الشجر الذي يمد من أغصانه مهدياً يرتفع خمسة
أقدام ورقاً حديث العهد بالسقوط ، فعرفت ان هذا الجواد
قد مس الغصون ، وان ارتفاعه خمسة اقدم ، اما شكيمته

فيجب ان تكون من ذهب معياره ثلاثة وعشرون قيراطاً لأنه حلك بها حجراً يقاس به الذهب وقد تجربته . ثم عرفت آخر الأمر من آثار سنابكه على حجر من نوع آخر ان هذه السنابك من فضة معيارها احد عشر دانقاً » .

ولقد أعجب القضاة جميعاً بدقة زديج وفطنته . وارتفع امر هذه القصة الى الملك والملكة ، فلم يكن للناس حديث في القصر الا زديج . ومع ان جماعة من الكهنة قد أشاروا بتحريقه لأنه ساحر . فقد أمر الملك ان ترد اليه غرامة أربعمائة المثقال من الذهب التي فرضت عليه . وقد أقبل الكتاب والحجاب والنواب الى داره في موكب عظيم يحملون اليه المئاقيل أربع المئاة ، ولم يحتجزوا منها الا ثلاثمائة وثمانية وتسعين مثقالاً على انها نفقات القضاء ، وطلب خدامهم بعض العطاء .

وقد رأى زديج الى اي خطر يتعرض الانسان حين يكون واسع العلم ، وعاهد نفسه على الا يقول ما يرى حين تسنح له أول فرصة .

وقد سنحت هذه الفرصة بعد وقت قصير . فقد هرب سجين من سجن الدولة ومر من تحت نافذته . فلما سئل زديج أجاب بأنه لم ير شيئاً . ولكن الحجوة أقيمت عليه انه كان ينظر من نافذته . وقضي عليه بغرامة قدرها خمسمائة مثقال من ذهب ، وشكر هو قضائه لأنهم رفقوا به ، كما جرت العادة في بابل ان يرفع المحكوم عليهم

شكرهم الى القضاة قال زديج لنفسه : « يا لله ! ان
الانسان نخلق بالرثاء حين ينتزه في غابة مرت بها كلبة
الملكة وجواد الملك ... وانه لخطر ان ينظر الانسان من
نافلته ، وانه لعسير ان يسعد الانسان في هذه الحياة » .

الفصل الرابع

الحسود

أراد زديج ان يتعزى بالفلسفة والصدافقة عما جر الحظ عليه من الآلام . وكانت له في ضاحية من ضواحي بابل دار أنيقة قد زينت في ذوق ، جمع فيها ألوان الفنون وضروب اللذات التي تليق بالمتقف الكريم . فكانت خزانة كتبه مفتوحة في الصباح للعلماء جميعاً ، وكانت مائتته في المساء ممدودة لكرام الرفاق . ولكنه لم يلبث ان تبين ان خطر العلماء شديد ، فقد أثرت خصومة عنيفة حول قانون من قوانين زرادشت كان يحظر أكل العنقاء . قال بعضهم : « كيف يحرم أكل العنقاء مع انها غير موجودة ؟ » وقال بعضهم : « يجب ان تكون موجودة ما دام زرادشت قد حرم اكلها » . وقد أراد زديج ان يوفق بين المختصمين فقال لهم : إذا وجدت العنقاء فلنتجنب اكلها ، واذا لم توجد فليس الى اكلها سبيل ، وكذلك نطيع جديعاً أمر

زرادشت .

وكان هناك عالم قد ألف كتاباً من ثلاثة عشر مجلداً في خصائص العنقاء ، وكان فوق ذلك من كبار أصحاب الكرامات ، فأسرع الى عظيم من الكهنة يسمى ييبور ، وكان أشد الكهنة حمقاً ، وأشدهم من أجل ذلك تعصباً ، فاتهمّ امامه زديج . وكان هذا الكاهن خليقاً ان يذيق زديج عذاب الهون تمجيداً للشمس ، وان يتلو في اثناء ذلك كتاب زرادشت راضي القلب مطمئن الضمير . ولكن الصديق كادور - وصديق واحد خير من مئة قسيس - زار ييبور الشيخ وقال له : « لتحي الشمس ، ولتحي العنقاء ! احذر ان تعاقب زديج ، فهو قديس ، يملك في داره ضروباً من العنقاء ، ولكنه لا يأكل منها . وخصمه الذي يتهمه صاحب بدعة يزعم ان للأرنب رجلاً مشقوقة ، وانها ليست حيواناً نجساً » . قال ييبور وهو يهز رأسه الأصلع : « هذا حسن فلنعذب زديج لأنه ذكر العنقاء بالسوء ، ولنعذب خصمه لسوء رأيه في الأرنب » . وقد استطاع كادور ان يصلح الامر بواسطة غانية من غواني الشرف كان قد أولدها ولدأ . وكانت لها مكانة ممتازة عند جماعة الكهنة ، ولم يعذب أحد . فجمجم لذلك بعض العلماء وتنبأوا بسقوط بابل . وصاح زديج : « ما قوام السعادة ؟ كل شيء في هذا العالم يضطهدني حتى الكائنات التي لا توجد » . ومقت العلماء وأزعع الايحيا الا

ثم جعل يجمع في داره أشرف الرجال وأجمل النساء
من أهل بابل ، وكان يولم لهم ولائم أنيقة ، ويقوم بين
يديها بفنون من الموسيقى وضروب من الأحاديث العذاب
التي حرص على ان تبرا من تكلف النكتة ، لأن هذا
التكلف هو أقرب الطرق الى فساد الذوق وإفساد الصلوات
بين الناس ولم يكن للغرور أثر في تخير الاصدقاء ولا
في تخير أصناف الطعام ، لأنه كان يؤثر الحقائق على
المظاهر ، فيظفر من الإكبار والتقدير بما لم يكن يريد .
وكان يقسم في دار امام داره اريماز ، رجل كان
منظره البشع بصورة سوء سريرته . كان الجسد يأكل قلبه
والكبر ينفخ جسمه ، وكان على ذلك مملاً لكثرة تكلفه
في الحديث . لم يتح له النجاح قط فكان يتعزى عن ذلك
بالغبية . وكان على ثرائه يجد أشق الجهد في ان يجمع
حوله المتملقين وكانت ضوضاء العربات التي تدخل دار
زديج كل مساء تؤذيه ، وكان الثناء على زديج يزيده
حنقاً الى حنق . وكان يلم بدار زديج احياناً ويجلس الى
المائدة دون أن يدعى اليها ، فكان يفسد بمحضره بهجة
الجماعة ، كما يقال عن بعض الطير البغيضة : انها تفسد
ما تمس من الطعام . وقد هم ذات يوم ان يولم تكريماً
لإحدى السيدات ، ولكنه بدا له فلم يستقبلها وتناول العشاء
عند زديج . وكان مرة أخرى يتحدث الى زديج في القصر

وهما يسعيان ، فلقبها احد الوزراء ، واذا هذا الوزير يدعو زديج الى طعامه دون ان يدعو صاحبه . وأشد أنواع العداوة لا يعتمد غالباً على اسباب اعظم خطراً من هذه الأسباب التافهة . وقد أزمع هذا الرجل الذي كان يعرف في بابل كلها بالحسود ان يهلك زديج لأن الناس كانوا يلقبونه بالسعيد . وفرص الاساءة تسنح مئة مرة في اليوم على حين لا تسنح فرصة الاحسان الا مرة واحدة في العام ، كما يقول زرادشت .

وقد زار الحسود ذات يوم زديج ، فلقبه ببتزه في الحديقة مع صديقين وسيدة حسناء كان يوجه اليها بين حين وحين بعض الغزل لا يريد به اكثر من قوله . وكان الحديث يدور حول حرب انتصر فيها الملك على امير من عماله في اركانيا . وكان زديج قد اشاد بشجاعة الملك ، وجعل يثني عليه ويثني على هذه السيدة . وقد أخذ لويحة وكتب عليها آياتاً أربعة دفعها الى السيدة لتقرأها . فطلب اليه اصداقاه ان ينشدهم إياها ، فنعه من ذلك التواضع او شيء من الاعتداد بالنفس ، كما يكون عند الرجل الكريم . وكان يعلم ان الشعر المرتجل لا يلائم الا من وجه اليه من الناس ، فحطم لويحته التي كتب فيها هذه الايات شطرين ، وألقاهما بين جماعة من الورد ، ثم طال البحث عنهما في غير عناء . وقد تلبث الحسود في الحديقة بعد انصراف الجماعة ، وألح في البحث حتى وجد شطراً

من شطري اللويحة . وكانت اللويحة قد حطمت بحيث أصبح كل شطر من أشطر الأبيات مستقلاً يدل على معنى خاص . وأرادت المصادفة الغريبة ان تدل هذه الابيات المشطورة القصار على معنى يصور أشبع هجاء للملك ، فقد كان يقرأ فيها :

بأقبح جريمة
ثبت على العرش
من هو في السلم العام
عدو وحيد

وقد سعد الحسود لأول مرة في حياته . فبين يديه ما يمكنه من ان يهلك رجلاً خيراً محبباً الى النفوس . وقد ملأته هذه السعادة القاسية ، فأوصل الى الملك هذا الهجاء الذي خطته يد زديج ، واذا زديج يلقي في السجن ومعه السيدة وصديقه . ثم نظرت قضيته على ، جعل دون ان يؤذن له بالدفاع عن نفسه . فلما أحضر لسمع الحكم عليه مر في طريقه بالحسود الذي قال له ان شعره سخيف لا قيمة له . ولم يكن زديج يزعم انه شاعر جيد ، ولكنه كان غارقاً في اليأس لأخذه بجريمة هجاء الملك ، ولأنه يرى سيدة وصديقين يظلون في السجن مع أنهم لم يقرؤوا إنمأ . ولكن كذلك كانت قوانين بابل . وقد سبق الى العذاب ، فجعل يسلك طريقه بين جماعة من المستطاعين لا يستطيع أحد منهم ان يظهر رثاء له أو عطفاً عليه ، وإنما كانوا

يسرعون إليه لينظروا في وجهه وليتبينوا أيستقبل الموت
مبتسماً له . مرتاحاً إليه . وكانت أسرته وحدها حزينة
لأنه لم يترك لها ميراثاً ، إذ كانت ثلاثة أرباع ثروته
مصادرة لخزانة الملك وربعها مصادراً مكافأة للحسود .

وبينما كان زديج يتهبأ للقاء الموت طارت ببعاء الملك
من إحدى شرفات القصر الى حديقة زديج فوقعت على
جماعة من الورد . وهنساك كانت خوخة قد سقطت من
إحدى الأشجار فأصابت قطعة من لويحات الكتابة فلصقت
بها . واحتملت البعاء الخوخة وما لصق بها ، ومضت
حتى وضعت ذلك في حجر الملك . وكان الملك طلعة ،
فقرأ في هذه القطعة من اللويحة كلمات لا تدل على شيء
ولكنها تشبه ان تكون قوافي لبعض الشعر ، وكان يحب
الشعر . وللملوك الذين يحبون الشعر حظ من سعة الخيلة ،
فدعته مغامرة ببعائه الى التفكير . وكانت الملكة تذكر ما
كتب على القطعة التي حملها حسود زديج فأمرت بإحضارها .
فعرضت القطعتان ، وتبين أنها تتفقان اتفاقاً تاماً، وهنالك
قرئت الابيات كما كتبها زديج ، فإذا هي كما يلي :

لقد رأيت الأرض تملؤها اضطراباً أعظم الجرائم .
وقد ثبت الملك على العرش قادراً على ضبط كل شيء
وإذا وسعت السلم كافة الناس فالحب وحده هو الذي
يشير الحرب وهو العدو الوحيد الذي يجب ان يخاف .

وما هي الا ان يأمر الملك بإحضار زديج ليحمل بين يديه ، وبأن يخرج من السجن صاحبا والسيدة الجميلة . فلما مثل زديج بين يدي الملك والملكة قبّست الأرض بين أيديهما ، وتوسل إليهما أن يغفرا له لهذه الأبيات الرديئة التي أقرفها ، وقد تحدث في ظرف ولباقة وذكاء ، فرغب الملك والملكة في ان يرياه . وقد عاد فإزداد اعجابهما به ، وقد أهديت اليه ثروة الحسود الذي كساد له بغير حق . ولكن زديج رد هذه الثروة الى الحسود الذي لم يتأثر الا بأن ثروته قد ردت اليه . وقد جعل رضا الملك عن زديج يزداد من يوم الى يوم ، فكان يحضره كل لذاته ويشاوره في كل أعماله . وجعلت الملكة منذ ذلك الوقت تنظر إليه في شيء من العطف كان خليقاً ان يصبح خطراً عليها وعلى زوجها الملك العظيم وعلى زديج وعلى الدولة كلها . وجعل زديج يظن ان ليس من العسير ان يكون الانسان سعيداً .

الفصل الخامس

الكريم

وقد أُقبل العيد الذي كان يقام في بابل كل خمسة أعوام . وكانت العادة قد جرت بأن يعان في بابل كل خمس سنين اسم الرجل الذي أتى عملاً يدل على الكرم والفضل . وكان العطاء والكهان هم القضاة . وكان محافظ المدينة يعرض أمام القضاة أحسن ما أبلى الناس من بلاء أثناء ولايته للحكم . ثم يتداول القضاة وينطق الملك بالحكم . وكان الناس يأتون الى هذا الحفل من أقصى الارض . وكان الفائز يتلقى من يد الملك كأساً من الذهب الخالص مرصعة بنفيس الجواهر ، ويسمع من الملك هذه الكلمات : « تقبل جائزة الكرم هذه وليكثر الله بين رعيتي من أمثالك » .

فلما كان يوم العيد ظهر الملك على عرشه يحف به

وجوه الدولة وكهاتها ونواب الأقاليم الذين أقبوا يشهدون هذا اليوم الذي لا يكتسب فيه المجد بسباق الخيل ولا باصطراع المصطرعين ، وإنما يكتسب بالاستباق الى الفضيلة والتنافس في الخير . وقد عرض محافظ المدينة بصوت جمهوري الأعمال النبيلة التي تؤهل أصحابها لهذه الجائزة السامية . فلم يذكر كبر النفس الذي أتاح ازديج ان يرد على الحسود ثروته ، فلم يكن هذا العمل من الاعمال التي تهيء صاحبها للاشتراك في هذه المسابقة

وإنما قدم أول الأمر اسم قاض دفع في بعض القضايا الى خطأ لم يكن مسؤولاً عنه ، فنزل عن ثروته كلها للخصم الذي خسر قضيته بهذا الخطأ ، وكانت ثروة القاضي تعدل ما خسر الخصم .

ثم قدم بعد ذلك اسم فتى كان يحب فتاة أشد الحب ، ويزيد ان يتخذها له زوجاً ، ولكنه علم ان لها محباً يكاد يهلكه الحب فنزل له عنها . ثم لم يكتف بهذه المكرمة وإنما أدى المهر من ماله الخاص .

ثم قدم بعد ذلك اسم جندي أبلى في حرب هيركانيا بلاء حسناً يتضاءل بالقياس اليه بلاء سابقه ، فقد اختطف جنديان من جيش العدو خليلته وكان يدافع عنها ليستردها منها ، واذا النبأ يصل اليه بأن جنوداً آخرين من جيش العدو يريدون ان يختطفوا أمه غير بعيد منه ، فترك خليلته باكياً وأسرع فاستنقذ أمه ، ثم عاد الى خليلته فوجدتها

تحتضر . فهم ان يقتل نفسه حزناً ، ولكن أمه بينت له انه وحيدها وليس لها عائل غيره ، فكان له من الشجاعة ما أعانه على احتمال الحياة في سبيل أمه .

وكان القضاة يميلون الى هذا الجندي . ولكن الملك قال : « ان بلاءه وبلاء من سبقه حسن ، ولكنه لا يدهشني ، اما زديج فقد أبلى أمس بلاء راعني ، فقد غضبت منذ أيام على وزير ي وعلی أثري كوريب ، وكنت ألومه في عنف شديد ، وكانت الحاشية كلها تؤكد لي أنني كنت به رفيقاً ، وكانوا جميعاً يستبقون أيهم يكون أشد إساءة في القول الى كوريب . فسألت زديج عن رأيه فيه ، فإذا هو يجترى فيثني عليه . وأعترف اني قرأت في تاريخنا ان الناس كثيراً ما أصلحوا خطأهم بإنفاقهم اموالهم كلها ، وانهم كثيراً ما نزلوا عن خليلاتهم وآثروا أمهاتهم على عشيقاتهم ، ولكني لم اقرأ قط ان رجلاً من أهل القصر استطاع ان يثني على وزير . مقال قد غضب عليه ملكه غضباً شديداً . وإني امنح كل واحد من هؤلاء الأبطال عشرين ألف دينار ذهباً خالصاً ، ولكني أخص بالكأس زديج . »

قال زديج :

— مولاي ان جلالتك وحدها هي التي تستحق الجائزة ، لأنها أنت عملاً لا نظير له في الروعة ، فأنت يا مولاي ملك ، وأنت مع ذلك لم تغضب على عبدك حين اجترأ

على ان يعارضك وانت مغيب .

وقد أعجب الناس بالملك وبزديج . وتلقى القاضي
الذي نزل عن ثروته ، والعاشق الذي زوّج خليلته من
صديقه ، والجندي الذي آثر سلامة أمه على عشيقته هدايا
الملك ، ورأوا أسماءهم تسجل في سجل الكرماء ، وتلقى
زديج الكأس . واشتهر الملك بأنه ملك عظيم خيّر ،
ولكنه لم يحتفظ بهذه الشهرة وقتاً طويلاً . واختص هذا
اليوم بأعياد أطول مما قرر القانون . وما زال الناس يذكرون
هذه الأعياد في آسيا الى الآن . وكان زديج يقول :
« اني اذن لسعيد » ولكنه كان مخطئاً

الفصل السادس

الوزير

وقد فقد الملك وزيره الأكبر : فاختر زديج ليشغل هذا المنصب ، وصفتت لهذا الاختيار حسان بابل جميعاً فلم تعرف الدولة منذ إنشائها وزيراً له هذا الشاب. وحزن رجال القصر جميعاً حتى انتهى الأمر بالحسود الى السل الذي انتهى به الى ان يبصق دماً ، وورم أنفه وروماً مروعاً أما زديج فقد رفع شكره الى الملك والملكة ثم ذهب ليهدي شكره الى البيغاء قائلاً: «أيها الطائر الجميل. لقد أنقذت حياتي وجعلتني وزيراً اكبر . ما أكثر ما أسامت إليّ كلبه الملكة وجواد الملك ، وما أكثر ما قدمت إلي أنت من الإحسان !. وكذلك يتعلق مصير الناس بأوهي الأسباب . » ثم أضاف الى ذلك قوله : « ولكن هذه السعادة الغريبة خليقة ان يكون أمدها قصيراً . » قالت البيغاء : « نعم ! » فوجم زديج لهذا الجواب :

ولكنه على ذلك كان عالماً بطبائع الأشياء والأحياء ، وكان يعرف أن البيغاء لم تطلع قط على علم الغيب ، فلم يلبث أن عاد إلى الثقة والاطمئنان ، ونهض بأعباء الوزارة على أحسن وجه ممكن .

فأشعر الناس جميعاً بما للقوانين من سلطان مقدس ، ولم يشعر أحداً ما بثقل كبريائه الخاصة ، ولم يفرض رأيه على الديوان ، وإنما كان لكل وزير أن يجهر برأيه دون أن يسوءه أو يتعرض لسخطه . وكان إذا جلس للقضاء لم يقض هو ، وإنما كان يترك القضاء للقانون ، ولكنه كان يلفظ القانون إن آتس فيه قسوة أو غلواً في العنف . وكان إذا حدثت واقعة لم يعرض لها القانون قضى فيها بالعدل حتى كأنه زرادشت .

فنه تعلمت الأمم هذا المبدأ الخطير ، وهو أن إنفاذ المجرم خبير من الحكم على البريء . وكان يعتقد أن القوانين شرعت لإغاثة المواطنين كما شرعت لإخافتهم . وكان يمتاز بالحرص على إظهار الحقيقة التي يحرص الناس كلهم على إخفائها .

ولم يكذب ينهض بأعباء الحكم حتى انتفع فيه بدكائه كله . وكان تاجر كبير من تجار بابل قد قضى نجبه في الهند ، وكان قد قسم ثروته بين ابنه قسمة عدلاً ، على أن يزوجا أختها ، ثم ترك ثلاثين ألف دينار ذهباً على أن تكون منحة لأبي ابنه يظهر أنه أشد حياً لأبيه . فأما

الابن الأكبر فاتخذ لأبيه قرماً ، وأما ابنه الأصغر فزاد من نصيبه في الميراث مهر أخته ، وكان الناس يقولون : « إن الابن الأكبر مؤثر أباه على حين أن الابن الأصغر يؤثر أخته ، فللابن الأكبر يجب أن تؤول هذه الثلاثون ألفاً من الدينار . »

أما زديج فدعاها إلى المثل بين يديه واحداً في إثر صاحبه . وقال للأكبر : « إن أباك لم يمت ، وإنما برىء من عنته الأخيرة وعاد إلى بابل . » قال الفتى : « الحمد لله ، ولكن هذا القبر قد كلفني كثيراً من المال ! » . قال زديج للابن الأصغر ما قاله لأخيه فقال : « الحمد لله لأردن إلى أبي نصيبي من الميراث ، ولكني أود لو ترك لأختي ما قدمت إليها منه . » قال زديج : « لن ترد شيئاً وستساق إليك الثلاثون ألفاً من الدينار ، فأنت الذي تؤثر أباك بالحب . »

وكانت فتاة عظيمة الثراء قد وعدت كاهنين بالزواج ، وبعد أن تثقفت أشهراً على الكاهنين أصبحت حاملاً ذات يوم . وكان كلا الكاهنين يريد أن يتخذها لنفسه زوجاً . أما هي فأعلنت أنها لن تختار منهما إلا الذي أتاح لها أن تمنح الدولة مواطناً جديداً . قال أحدهما : « فأنا الذي أتاح لها هذا المواطن . » قال الآخر : « بل أنا الذي أتيت له هذه المزية . » قالت الفتاة : « فإني أختار منكما أيكما يكون أقدر على أن يربي الطفل تربية ممتازة . » وقد

ولدت غلاماً وتنافس الكاهنان في تربيته . وقد رفعت القضية إلى زديج ، فدعا الكاهنين وقال لأولهما : « ماذا تريد أن تعلم الصبي ؟ » قال الكاهن : « سأعلمه الخطابة والمنطق والفلك وخصائص الشياطين ، وسأعلمه حقيقة الجواهر والعرض والمجرد والمركب ، والوحدات التي يتألف منها الكون والنظام الذي سبق به القضاء . » وقال الكاهن الآخر : « سأحاول أن أجعله عدلاً خليقاً بأن يكون له أصدقاء . » قال له زديج : « لتكن أباه أو لا تكن ، فأنت الذي سيتزوج أمه . »

وكانت الشكوى ترتفع إلى القصر في كل يوم من حاكم ميديا ، وكان يسمى ايراكس . فقد كان سيذاً عظيماً كريم الطبع ، قد أفسده الغرور وحب اللذة ، وكان لا يكاد يحتمل أن يتحدث إليه الناس ولا يسمح بأن يخالفه مخالف . ولم يكن الطاووس أشد منه غروراً ، ولم يكن الحمام أشد منه إثارةً للذة ، ولم تكن السلحفاة أشد منه حباً للكسل . ولم يكن ينعم إلا بالمجد الباطل واللذة الكاذبة . وقد حاول زديج اصلاحه .

فأرسل إليه من قبل الملك موسيقياً بارعاً يصحبه اثنا عشر من المغنين وأربعة وعشرون من الموقعين ، وأرسل إليه مع هؤلاء قيمماً على الخدمة ومعه ستة من السعاة وأربعة من الحجاب لم يكن يباح لهم أن يتركوه . وصدر أمر الملك باتباع النظام الآتي دون مخالفة عنه أو خروج عليه .

واليك كيف نفذ هذا النظام :

لم يكد ايراكس يفيق من نومه في اليوم الأول حتى دخل عليه أستاذ الموسيقى ومعه المغنون والموقعون ، فغنوا له أغنية استمرت ساعتين ، وكان يتردد فيها كل ثلاث دقائق هذا الكلام :

ما أحسن بلاءه

ما أجمله ! ما أعظم خطره !

ما أجدر مولانا

بأن يرضى عن نفسه .

فلما فرغ المغنون تقدم أحد الحجاب فألقى بين يديه خطبة استمرت ثلاثة أرباع الساعة لم تشتمل إلا على الثناء عليه بما ليس فيه . فلما انتهت الخطبة قيد إلى المائدة على نعم الموسيقى . وقد اتصل الغداء ثلاث ساعات لم يكن بهم فيها بالكلام حتى يقول الحجاب الأول :

« لن يقول إلا صواباً » . ولا يكاد ينطق بكلمات أربع حتى يقول الحجاب الثاني : « لقد أصاب » . ويضحك الحجابان الآخران مما قال ، أو مما كان يمكن أن يقول . فإذا فرغ من غدائه أعيدت عليه الأغنية .

وقد وجد في يومه الأول لذة أي لذة ، واعتقد أن الملك إنما أراد أن يعطيه حقه من التكريم ، فلما كان اليوم الثاني وجد فيه من اللذة أقل مما وجد في اليوم الأول . فلما كان اليوم الثالث ضاق به شيئاً . فلما كان اليوم الرابع

لم يستطع له احتمالاً . فلما كان اليوم الخامس وجد فيه
عذاباً شديداً . ثم ضاق آخر الأمر بكثرة ما كان يقال
له من أنه خليق أن يرضى عن نفسه ، وبكثرة ما كان
يقال له لقد أصاب ، وبكثرة ما كان يُلقى بين يديه
من الخطب في ساعة معينة من كل يوم . فكتب إلى القصر
يتوسل إلى الملك في أن يتفضل فيسترد حجابيه ومغنيه
وخدامه ، ويعد بأنه سيحرص على أن يكون في مستقبل
أيامه قليل الغرور كثير النشاط . ثم أعرض عن الثناء
الباطل واللذة الكاذبة وأصبح سعيداً « فإن اللذة المتصلة
ليست من اللذة في شيء » ، كما يقول الكتاب المقدس
للبراهمة .

الفصل السابع

الاستقبالات والخصومات

وكذلك كان زديج يظهر في كل يوم دقة ذكائه وكرم نفسه . وكان الناس يعجبون به ، وكانوا مع ذلك يحبونه ، ويرون أنه أسعد الناس . وكان اسمه عملاً الدولة كلها ، وكان النساء جميعاً ينظرن إليه ، وكان المواطنون جميعاً يشنون على عدله ، وكان العلماء يرون أن مكانه منهم مكان الوحي . وكان الكهنة أنفسهم يعترفون بأنه يحيط من العلم بأكثر مما يحيط به عظيمهم الشيخ ييبور . وكان العهد بعيداً بقضية العنقاء . ولم يكن الناس يقبلون إلا ما كان زديج يرى أنه خليق بالقبول .

وكانت في بابل خصومة عظيمة قديمة قد اتصلت منذ خمسة عشر قرناً ، وانقسمت لها الدولة إلى فريقين متعادين أحدهما كان يرى ألا يجوز أن يتخطى الداخل عتبة المعبد لمرا إلا بقدمه اليسرى ، والآخر كان يحقت هذه العادة أشد

المقت ، ولا يدخل المعبد إلا برجله اليمنى . وجعل الناس ينتظرون يوم العيد الأكبر للنار المقدسة ليروا أي المذهبين يؤثر زديج . وكانت أعين العالم كله تتجه إلى رجليه ، وكانت المدينة كلها مضطربة قلقة . ولكن زديج دخل المعبد وثباً فلم يقدم رجلاً ويؤخر أخرى . ثم بين للناس في خطبة رائعة ان إله السماء والأرض الذي لا يختص أحداً بفضله لا يؤثر قدماً على قدم سواء أكانت اليمنى أو اليسرى .

وقد زعم الحسود وامرأته أن خطبته لم تشتمل على مقدار ملائم من المجاز وأنه لم يرقص فيها التلال والجبال . وكانا يقولان إن خطبته جافة لا براعة فيها ، فليس يرى فيها البحر هارباً ، ولا النجوم متساقطة ، ولا الشمس ذائبة كما يذوب الشمع ، فليس له الأسلوب الشرقي الجميل . أما زديج فكان يكفيه أن يكون أسلوبه ملائماً لعقله . وقد سار الناس كلهم على أثره ، لا لأنه كان على الصراط المستقيم ولا لأنه كان حريصاً على موافقة العقل ، بل لأنه كان الوزير الأول .

وهو كذلك قد قضى قضاء حسناً بين الكهنة البيض والكهنة السود . وكان البيض يزعمون إن من الإثم أن يتجه الناس إلى المشرق إذا صلوا في الشتاء ، وكان السود يؤكدون أن الله يكره الذين يصلون إلى المغرب في الصيف . فأمر زديج أن يولي الناس وجسوههم في الصلاة حيث

يشاءون . وقد نظّم وقته فكان يصرف الأعمال الخاصة والعامّة في الصباح . وينفق بقية اليوم في تجميل بابل . وكان يأمر بتمثيل المأساة التي تبكي والملهات التي تضحك . وقد أحيأ هذه العادة بعد أن ماتت . لأنه كان عظيم الحظ من الذوق ، ولم يكن يزعم أنه يعرف الفن خيراً من أهله ، وإنما كان يكافئ أصحاب الفن بالمال وأنواع التمييز ولا يخفي الغيرة من تفوقهم . فإذا كان المساء فرغ لتساية الملك والملكة خاصة . وكان الملك يسميه الوزير الأكبر ، وكانت الملكة تسميه الوزير الظريف ، وكانا يضيفان كلاهما أن الدواة كانت تتعرض بفقدته لشر عظيم . ولم يتح لوزير قط أن يستقبل السيدات بمقدار ما كان يستقبلهن . وكان أكثر من يسعين إليه يعرضن عليه أموراً لا تعنيهن ليحدثن بينهن وبينه أموراً ذات بال . وكانت زوج الحسود منهن في الطليعة ، وقد أقسمت له بتمرا وبالزندانفاستا وبالنار المقدسة ، أنها كرهت سيرة زوجها معه ، ثم أسرت إليه بعد ذلك أن هذا الزوج غيور عنيف . ثم لمحت له بأن الآهة يعاقبونه على ذلك فيحرمونه الاستمتاع بهذه النار المقدسة التي ترفع الناس إلى مكان الخالدين . ثم أسقطت رباط جوربها ، وقد التقطه زديج في أدبه المؤلف ، ولكنه لم يرده إلى موضعه من ساق السيدة ، وكانت هذه الغلطة - إن صح أن تكون غلطة - مصدراً لخطوب منكرة شداد . لم يفكر زديج في هذه الغلطة ،

ولكن امرأة الحسود أطالت فيها التفكير
وجعلت سيدات آخر يزرنه في كل يوم وقد سجل
التاريخ السري لمدينة بابل أنه هفا هفوة واحدة ، ولكنه
دهش أشد الدهش لأنه لم يجد في هذه الهفوة لذة ، ولأنه
كان يقبل خليلته لاهياً عنها . وكانت المرأة التي ميزها
بهفوته هذه وهو لا يكاد يلتفت إليها وصيفة من وصائف
الملكة استارته . وكانت هذه البابية الرقيقة تقول لنفسها
ملتزمة العزاء : « يجب أن يكون هذا الرجل كثير الهموم
إلى حد أنه يفكر في همومه أثناء الحب » . وقد أفلتت من
زديج في الساعة التي لا يقول الناس فيها شيئاً أو لا
يقولون فيها إلا ألفاظاً مأثورة كلمة نطق بها عن غير
وعي ، وهي : « الملكة » فظنت البابية أنه قد ثاب
إلى نفسه آخر الأمر وأنه يدعوها ملكته . ولكن زديج
مضى في ذهوله حتى نطق باسم الملكة استارته . وخيّل
إلى السيدة في هذه اللحظة السعيدة أنه كان يقول لها إنها
أجمل من الملكة استارته . وقد خرجت من قصر زديج
ومعها طرف كثيرة . فإني إلا أن تزور زوج الحسود
وكانت لها صديقاً حميماً ، فتقص عليها مغامرتها تلك .
وتغار هذه لأن زديج آثر عليها صاحبته . قالت : « إنه
لم يتزل حتى أن يضع رباط الجورب هذا في موضعه ،
ولقد كرهت هذا الرباط منذ ذلك اليوم . » قالت السيدة
السعيدة للسيدة الحسود : « إنك لتتخذين لجواربك نفس

الرباط الذي تتخذه الملكة ، لعلكما تشتريانه من صانعة واحدة . « ففكرت زوج الحسود طويلاً ولم تقل شيئاً . ثم أظهرت زوجها الحسود على القصة كلها . وكان زديج في أثناء ذلك يلاحظ ان شيئاً من الدهول يصيبه حين يقضي وحين يستقبل . ولم يكن يعرف كيف يعلل هذا الدهول .

وقد رأى ، فيما يرى النائم ، كأنه كان مستلقياً على عشب جاف فيه شوكات تؤذيه . ثم كأنه بعد ذلك كان نائماً على سرير من الورد ، فخرج منه ثعبان لدغ موضع القلب منه بلسانه الدقيق الحاد المسموم . وكان يقول لنفسه : « واحسرتاه ! لقد نمت طويلاً على العشب الشائك ، ثم هاأنذا الآن أنام على سرير من الورد ، فما عسى أن يكون هذا الثعبان ؟ » .

الفصل الثامن

الغيرة !

وقد جاء شقاء زديج من سعادته نفسها ومن كفايته بنوع خاص . فقد كان يخلو في كل يوم الى الملك فيتحدث اليه والى زوجته الجليلة استارتيه وكان سحر حديثه يزداد لحرصه على ان يثير الاعجاب . ومكان هذا الحرص من النفوس مكان الزينة من الاجسام وقد أثر شبابه وظرفه في نفس استارتيه تأثيراً لم تظن له أول الأمر : فجعل حبها ينمو في ظل البراءة . وكانت استارتيه تستمتع غير متحفظة بالنظر والاستماع الى فتى عزيز على زوجها وأثير عند الدولة كلها . ولم تكن تكف عن الثناء عليه عند الملك والتحدث عنه الى وصائفها اللاتي كن يصفن اطراء إلى اطراء . وكان كل شيء يعين على ان يتفقد في قلبها ذلك السهم الذي لم تكن تشعر به . وكانت تهدي الى زديج من الهدايا ما يدل على الميل أكثر مما كانت

تقدر . وكانت تظن أنها إنما تتحدث اليه كما تتحدث
الملكة إلى وزير قد رضيت عن عمله ، على حين أنها إنما
كانت تتحدث اليه حديث امرأة رقيقة مرهفة الحس .
وكانت استارتيه أروع جلالاً وأبرع حسناً من سمير ،
تلك التي كانت تكره العور ، ومن تلك المرأة التي كادت
تجدع أنف زوجها . وما هي إلا ان يثير تبسط استارتيه
مع زديج ، وحديثها الرقيق الذي أخذ يسبغ على وجهها
شيئاً من حمرة ، ولحظها الذي كانت تريد ان تحوله ولكنه
كان يستقر على لحظه هو فيذكي في قلبه ناراً دهش لها
دهشاً شديداً . وقد قاوم واستعان بالفلسفة التي كانت
تعينه كلما التمس عندها العون ، ولكنها في هذه المرة
لم تمدده إلا بنور المعرفة دون ان تخفف من وجده
شيئاً . وكان الواجب وعرفان الجميل وجلال الملك ، كل
أولئك يتمثل له كأنه آلهة الانتقام . كان يقاوم وكان
ينتصر . ولكن هذا الانتصار الذي كان يجب ان يظفر
به كل ساعة كان يكلفه كثيراً من الأنين والدموع . وقد
أصبح لا يجرو على أن يتحدث إلى الملكة في تلك الحرية
الحلوة التي كانت تسحرهما جميعاً . وكان إذا لقي الملكة
غشيت عينيه سحابة وتمطع حديثه واختلط ، فكان يعض
بصره ، فإذا تحول لحظة على رغمه نحو الملكة رأى عينيها
يللها الدمع وتنطلق منها في الوقت نفسه سهام من نار ،
وكأنما كان كل منها يقول لصاحبه : « ان الحب يشغفنا

ولكننا نخاف الحب ، وإن ناراً واحداً نحرقنا ولكننا نبغض هذه النار . »

وكان زديج يخرج من عندها هائماً واجماً قد أثقل قلبه عبء لا قبيل له باحتماله . وقد تجاوز الهيام به حده ، فأظهر صديقه كادور على مكنون سره ، وكان يشبه في ذلك رجلاً شقَّ عليه الألم حتى أضناه فانتزع منه صيحة شاكية وأسأل على جبهته عرقاً بارداً ، فظهر من أمره ما كان مستوراً .

قال كادور : « لقد تبينت هذا الشعور الذي كنت تريد أن تخفيه حتى على نفسك ، فإن للعواطف الجارحة آيات ليس إلى الشك فيها سبيل . فقدر أيها الصديق العزيز وقد استطعت أنا أن أقرأ في قلبك ، كيف تكون حال الملك لو قرأ في هذا القلب بعض ما يهينه ! فليس للملك عيب إلا أنه أشد الناس غيرة . انك تقاوم حبك في قوة أشد مما تبذل الملكة لمقاومة حبها . ومصدر ذلك أنك فيلسوف ، وأنت أنت زديج . أما استارتيه فامرأة ، وهي تبيح للحظها أن يتكلم في غير تحفظ ، لأنها ما زالت تعتقد أنها غير آتمة . وهي مع الأسف قد اطمأنت إلى براءتها ، فيدعوها ذلك إلى الإهمال في التحفظ والاحتياط بالقياس إلى أشياء خارجية لا ينبغي أن تهمل ، وسأظل مشفقاً عليها ما لم تقترف شيئاً تلوم نفسها فيه . ولو قد اتفقنا لكان عليكما خداع الرقباء . فالحب الناشئ المكبوت

لا بد من أن يفتضح ، أما الحب الذي ظفر بالرضا فهو قادر على أن يستخفي . » وقد اضطرب زديج لهذه الفكرة التي تغريه بخيانة الملك وهو الذي أحسن إليه ، ولم يبلغ من الوفاء للملكه قط مثل ما بلغ حين تبين أنه قد تورط في هذه الخطيئة عن غير إرادة منه . ومع ذلك فقد كانت الملكة تكثر من ذكر زديج ، وكانت الحمرة تغشى وجهها كلما ذكرته ، وكانت حين تتحدث إليه ، يحضر الملك تتحمس حيناً وتنقطع حيناً ، وكانت تغرق في التفكير العميق إذا خرج ، حتى أثار هذا كله شيئاً من الاضطراب في نفس الملك ، فصدق كل ما رأى وتخيّل كل ما لم ير ، ولاحظ بنوع خاص أن حذاء امرأته كان أزرق ، وان حذاء زديج كان أزرق ، وأن شرائط الملكة كانت صفراء وأن قلنسوة زديج كانت صفراء . وكانت هذه الأشياء كلها آيات خطيرة بالقياس إلى ملك مترف . وما هي إلا أن يتحول الشك إلى يقين في نفسه الساخطة .

وخدام الملوك والملكات جميعاً جواسيس على قلوبهم . فما أسرع ما تبين هؤلاء الخدم ان استارتيه عاشقة ، وأن مؤبدار غيران . وأغرى الحسود امرأته بأن ترسل إلى الملك رباط جوربها الذي يشبه رباط جورب الملكة . وكان هذا الرباط ، لشقاء زديج ، أزرق ، فلم يفكر الملك بعد ذلك إلا في الانتقام . وأزمع في ذات ليلة أن

نعت الملكة مسمومة . وأن يميت زديج مشنوقاً ، إذا
 أسفر الصبح . ثم صدر الأمر بذلك إلى خصي قاسٍ من
 خصيانه موكل بانتقامه . وكان في غرفة الملك حين أصدر
 هذا الأمر قزيم أخرس ولكنه سمع ، وكان يخالط الملك
 ولا يخفى عليه من أمر القصر شيء كأنه بعض الحيوان
 المستأنس . وكان هذا الأخرس القزيم وفياً للملكة ولزديج
 فلما سمع الأمر بموتها أحس دهشاً لا يعادله إلا ما أحس
 من هول . ولكن كيف السبيل إلى اتقاء هذا الأمر الفظيع
 الذي يوشك أن ينفذ في ساعات قلائل ؟ لم يكن القزيم
 يحسن الكتابة ، ولكنه كان يحسن التصوير ويجيد المقاربة
 بين الصورة والأصل . فأنتق شطراً من الليل في رسم ما
 كان يريد أن يؤدي إلى الملكة من المعنى . وكان رسمه
 يصور الملك مغيظاً محتقاً مصدراً أمره إلى الخصي ، ومائدة
 غير بعيدة قد ألقى عليها حبل أزرق ورباط جورب أزرق
 وشريط أصفر وقام عليها إناء . والملكة في وسط اللوحة
 تحتضن بين أذرع وصائفها ، وزديج منحوق تحت قدميها .
 وكان الأفق يصور طلوع الشمس ، ليدل بذلك على أن
 هذا الأمر المنكر سيفقد إذا أسفر الصبح . فلما أتم صورته
 أسرع إلى وصيفة من وصائف الملكة وأفهمها أن هذه
 الصورة يجب أن تصل إليها من الفور .
 وفي أثناء الليل طرق باب زديج ثم أوقظ ودفعت إليه
 رسالة من الملكة . فيشك في أنه حامل أو عالم ، ثم يفص

الرسالة بيد مرتعشة . فأني دهش وأي حزن أصابه حين
قرأ هذه الكلمات :

« النجاء في هذه اللحظة وإلا فقدت حياتك ! النجاء
يا زديج ، إنني أمرك بذلك وأستحلفك بحبنا وبشرائطي
الصفير . لم أكن آثمة ولكني أشعر بأنني ساموت مجرمة . »
ولم يكذ زديج بجسد القوة على الكلام ، فأمر بدعاء
كادور . ولم يقل له شيئاً ، وإنما دفعه إليه الرسالة .
فأكرهه كادور على الطاعة . على أن يأخذ من غوره
الطريق إلى ممفيس . قال له : « ان حاولت لقاء الملكة
عجلت موتها ، فإذا تحدثت إلى الملك عجلت موتها كذلك .
فعلي أن أدبر أمرها ، فدبر أنت أمرك . وسأذيع أنك
سلكت طريقك إلى الهند . وسألحق بك بعد قليل وأثبتك
بما يكون قد حدث في بابل من الخطوب . »

وفي الوقت نفسه أمر كادور بإعداد نجيين خفيفين
سريعين أمام باب خفي من أبواب القصر ، وحمل على
أحدهما زديج حملاً ، فلم يكن يستطيع أن يسعى ، وإنما
كان يوشك أن يموت حزناً ، وصحبه خادم واحد . وما
هي إلا ساعة حتى كان كادور غارقاً في حزن عميق وقد
غاب صديقه من بصره .

ومضى هذا الهارب العظيم ، حتى إذا بلغ تلاً مشرفاً
على بابل التفت إلى قصر الملكة ثم أغمى عليه ، ولم يفق
من إغمائه إلا ليسفح الدمع ويتمنى الموت فلما قضى حق

الملكة التي هي أحب النساء الى القلوب وأبعد الملكات صوتاً في الآفاق ، وفكر فيما قضى عليها من شقاء ، عاد الى نفسه وفكر في أمره ، ثم صاح قائلاً : « ما حياة الناس اذن ؟ أيتها الفضيلة بماذا نفعتني ؟ لقد خانتني امرأتان وهذه الثالثة لم تقرفي إثمًا وقد قضى عليها الموت . كل ما في من خير كان مصدر شقاء لي . ولم أرتفع الى أرقى المراتب إلا لأهوي الى الدرك الأسفل من الشقاء . ولو قد كنت شريراً ككثير من الناس لظفرت بما يظفرون به من السعادة . » ومضى في طريقه الى مصر ثقله هذه الخواطر المهلكة ، ويغشى عينيه سحاب الألم ، وتعلو وجهه صفرة الموت ، وقد هوت نفسه من أعماق اليأس الى قرار سحيق .

الفصل التاسع

المرأة المضروبة

مضى زديج يهندي بالنجم في طريقه ، وكانت الجوزاء والشعري تقودانه نحو كانوب ، وهو يعجب بهذه الكرات الضخمة من الضوء التي لا تظهر لأعيننا الا كمستصغر الشرر ، على حين تظهر الارض لمطامعنا شيئاً عظيماً جليل الخطر ، مع انها ليست في حقيقة الامر الا نقطة ضئيلة في الكون . وكان يرى الناس كما هم في الواقع جماعات من الحشرات يأكل بعضها بعضاً على ذرة ضئيلة من الطين . وهذه الصورة الصادقة كانت تلغي شقاءه إلغاءً ، لأنها تضائل من شخصه ومن مدينة بابل نفسها . وكانت نفسه تتجرد من شخصيته وتثب نحو آفاق اللانهاية ، وتلاحظ هذا النظام المستقر الذي يمضي عليه الكون . ولكنه حين كان يثوب الى نفسه ويتعمق دخيلة قلبه لم يكن يستطيع الا ان يفكر في ان استارتيه قد تعرضت لأعظم الخطر :

ولعلها قد لقيت الموت . هنالك كان العالم كله يستخفي ،
ولم يكن هو يرى إلا استارتيه تحتضر وزديج يتجرع
كأس الشقاء !

وبينما كان يتردد بين هذا المد والجزر من فلسفة
رفيعة إلى ألم ممض جعل يتقدم نحو حدود مصر . وكان
خادمه الأمين قد سبقه إلى إحدى الضواحي ليلتمس له
منزلاً . وجعل زديج ينتزه في الحدائق التي تحيط بهذه
الضاحية ، فرأى غير بعيد من الطريق العامة امرأة مولحة
تستغيث بالأرض والسماء ، ورجلاً يتبعها وقد أخرجه
الغضب عن طوره . وقد لحقها الرجل وهي تستعطفه
لائمة ركبته ، والرجل يشبعها شتماً وضرباً . فمدر زديج
لمنظر هذين المصريين أن الرجل كان غيوراً وأن المرأة
كانت خائفة . ولكنه حين نظر إلى هذه المرأة ورآها
ذات جمال مؤثر وفيها ملامح من استارتيه رقاً لها وسخط
على الرجل أما هي فأعولت والعبرات تخطقها قائمة
لزديج : « أعني ، أنقذني من هذا الرجل الذي ليس
له نظير في الغلظة والجفاء أنقذ حياتي . »

هنالك أسرع زديج فألقى بنفسه بينهما ليرد عنها عنف
هذا الرجل . وكان له شيء من العلم بلغة المصريين .
فقال له في هذه اللغة : « ان كان لك حظ من رحمة
فإنني أتوسل إليك أن تحترم الجمال وترفق بالضعف .
أستطيع أن تهين إلى هذا الحد آية من آيات الطبيعة قد

جئت أمامك وليس لها عاصم منك إلا الدموع ؟ » قال الرجل العنيف : « فأنت تجبها أيضاً ! ومن حقي أن انتقم منك . » ثم أرسل شعر المرأة الذي كان يجذب به و صوب إلى الغريب رمحه يريد أن يشق به صدره . وكان زديج محتفظاً بهدوئه ، فاستطاع أن ينحرف عن الطعنة في يسر . وأخذ بسنان الرمح يجذب به إليه ، والمصري يريد أن يحتفظ به ، فيتحطم الرمح بين الرجلين . ويسل المصري سيفه فيسل زديج سيفه ، ويسعى كلاهما إلى صاحبه . فأما المصري فيرسل ضرباته في غير نظام ، وأما خصمه فيتقيها في مهارة . والمرأة جالسة على العشب تصف شعرها وتتنظر إليهما وكان المصري أقوى من خصمه ، وكان زديج أمهر من المصري : أحدهما يقاتل ورأسه يدير ذراعه ، والآخر يقاتل وقد ملك الغضب عليه أمره كله . ثم يهجم عليه زديج فيجرده من سلاحه ، ولكن المصري يبلغ من الغضب أقصاه فيهجم على زديج الذي يأخذه فيضغظه فيلقيه على الأرض فيضع ذباب السيف على صدره ويعرض عليه الحياة . هنالك يفقد المصري صوابه ، فيستل خنجره ويجرح به زديج في نفس الوقت الذي كان يهدي إليه العفو فيه . وقد ثارت حفيظة زديج فأغمد سيفه في صدر خصمه . ويدفع المصري صيحة هائلة ثم يلفظ الروح .

ثم يتقدم زديج في خضوع إلى هذه المرأة قائلاً لها في

صوت هادىء : « لقد أكرهني على أن أقتله . فأنت الآن صرت طليقة قد أمنت شر هذا الرجل الذي لم أرَ مشبهاً له في العنف . فإذا تريدني مني الآن يا سيدتي ؟ »
 قالت المرأة : « أريد أن تموت أيها المجرم . أريد أن تموت ! لقد قتلت حبيبي ! وددت لو أمزق قلبك تمزيقاً . »
 قال زديج : « ان لك في الحق لمزاجاً غريباً يا سيدتي ! لقد كان يضربك ضرباً مبرحاً ، ولقد كاد يسلبني حياتي لأنك طلبت إلي النجدة فاستجبت لك . » قالت معولة :
 « وددت لو يضربني الآن ضرباً مبرحاً ! لقد كنت أهلاً لما كنت ألقى منه ، لقد دفعته إلى الغيرة . وددت لو يضربني الآن وأنت ملقى مكانه . » قال زديج وقد أخذ منه الدهش والغضب مأخذاً عظيماً : « سيدتي إنك لرائعة الحسن ، ولكنك أهل لأن أضربك أنا أيضاً لأنك شاذة الأخلاق ، ولكي لن أكلف نفسي هذا الجهد . »
 ثم جلس على جماله وسعى نحو الضاحية . ولكنه لا يكاد يمضي إلا قليلاً ثم يسمع نبأة ، فيلتفت وإذا سعاة أربعة من أهل بابل قد أقبلوا مسرعين . فبرى أحدهم هذه المرأة ويصيح : « هذه هي ! إنها لتشبه الصورة التي وصفت لنا . » ثم لا يلتفتون إلى الميت وإنما يحيطون بالسيدة فيخطفونها خطفاً . وهي تصيح : « أنقذني مرة أخرى أيها الغريب ! إنني لنأدمة على الإساءة اليك . أنقذني ، إنني لأعتذر اليك بأني شكوت منك ! أنقذني وأنا لك إلى

أن أموت . » ولكن زديج كان قد فقد الميل الى ان
يقاتل في سبيلها ، فأجابها : « اطلبي المعونة من غيري
فلن تخدعيني مرة أخرى . »

على أنه كان جريماً وكان دمه يترف وكان محتاجاً
الى بعض العناية ، وقد ملأه منظر هؤلاء البابليين الأربعة
قلقاً ، فهم رسل الملك مؤبदार . فيسرع نحو القرية ،
غير متخيل للسبب الذي من أجله يختطف البابليون هذه
المرأة ، وغير فاهم لأخلاق هذه المرأة نفسها .

الفصل العاشر

الرق

ولا يكاد يدخل القرية المصرية حتى يرى الناس قد أحاطوا به ، وهم يتصاحون « هذا هو الذي اختطف ميسوف الحساء وقتل كليتوفيس » . قال زديج : « أمها السادة ليعصمني الله الى آخر الدهر من أن اختطف حسناء كم ميسوف ، فإنها جاحثة مسرفة في الجراح . اما كليتوفيس فإني لم أقتله عن عمد ، وإنما دافعت عن نفسي حين اعتدى علي . لقد كان اراد ان يقتلني لأنني طلبت اليه في أرفق الرفق ان يكفّ أذاه عن ميسوف وكان يضربها ضرباً مبرحاً . وإنما أنا رجل غريب قد أقبل لاجئاً الى مصر . وليس مما يلائم العقل ان أسعى اليكم مستجيراً بكم ثم أبدأ بخطف امرأة وقتل رجل . »

وكان المصريون في ذلك الوقت أولي عدل ورحمة فقد قاد الشعب زديج الى المركز ، وهناك ضمدت جراحه

قبل كل شيء ، ثم حقق معه ومع خادمه كل على حدة لاستجلاء الحقيقة فتبين ان زديج لم يتعمد القتل ولكنه قد أراق دم انسان ، وكان القانون يقضي عليه بالرق : فيسح جماله لمصاحبة القرية ، وفرق مسا كان يحمل من ذهب على أهلها ، وعرض هو وخادمه للبيع في سوق الرقيق . وقد تنافس فيها المشترون وتمت الصفقة لتاجر عربي يسمى سيتوك . على أن ثمن الخادم قد كان أرقى من ثمن سيده ، لأن الخادم اقدر على العمل واجدر ان يحتمل من المشقة ما لم يكن سيده يقدر على احتماله ولم ينظر الى ما بين السيد وخادمه من تفاوت في العقل والمترلة فأصبح زديج اذن عبداً خاضعاً لخادمه : وقد قرن كلاهما الى صاحبه في جبل واحد من رجليها ثم دفعا الى بيت سيدهما الجديد . وكان زديج في اثناء الطريق يعزي خادمه ويرغبه في الصبر ، ولكنه كان على عادته يفكر في حياة الانسان ومصيره . وكان يقول لخادمه : « ان الشقاء الذي كتب علي يمتد اليك . فقد دارت الاشياء كلها بالقياس اليّ دورة غريبة الى الآن ، فقد قضي علي بالغرامة لأنني رأيت كلبة تمر ، وأشرفت على الموت من اجل العنقاء ، وأرسلت الى العذاب لأنني صنعت شعراً أثبتت فيه على الملك ، وكدت أشتق لأن شرائط الملكة كانت صفراء ، وهأنذا أدفع معك الى الرق لأن رجلاً عنيفاً ضرب خليلته . فلنحتفظ بشجاعتنا . فقد يكون لألنا حد

يقف عنده ، ولا بد لهذا التاجر العربي من ان يملك الرقيق ولم لا اكون أنا رقيقاً كغيري من الرقيق ، ما دمت رجلاً كغيري من الرجال ؟ ولن يكون هذا التاجر قاسياً ، فقد كان ينبغي ان يرفق بعبيده ان كان يريد ان ينال منهم خيراً . « كذلك كان يقول لخادمه على حين كان قلبه مشغولاً بمصير الملكة استارتيه .

وقد ارتحل سيتوك العربي بعد يومين مستصحباً خادميه وإبله إلى صحراء بلاد العرب ، وكانت قبيلته تسكن قريباً من صحراء اوريب . وكانت الطريق طويلة شاقة . وكان العربي اثناء السفر يؤثر الخادم على سيده ، لأن الخادم كان يحسن وضع الانتقال على ظهور الإبل ، فكان العربي يخاصه بالعناية . وقد نفق أحد الجمال على مسيرة يومين من اوريب ، فوزع حمله على الخدم وحمل زديج نصيبه . وكان سيتوك يضحك حين يرى عبيده جميعاً يمشون وقد انحنوا لثقل ما كانوا يحملون . وقد استباح زديج لنفسه ان يبين له سبب هذا الانحناء ، ففسر له قوانين التوازن . فدهش التاجر وجعل ينظر اليه نظراً جديداً . ولما رأى زديج اهتمامه بما سمع استحسب حبه للاستطلاع ، فتحدث اليه في أشياء كثيرة كانت تتصل بتجارته ، كالثقل النوعي للأشياء التي تختلف مادة وتستوي حجماً ، وخصائص بعض الحيوان التي تنفع الناس ، وطرائق الانتفاع بما لا يظهر فيه نفع ، فتبين لسيتوك ان

خادمه حكيم ، فأثره وقدمه على خادمه الذي كان يفضله عليه من قبل . ثم أحسن معاملته . ولم يندم فيما بعد على ما قدم إليه من معروف .

ولم يكد سيتوك يصل إلى مضارب القبيلة حتى استقضى يهودياً خمسمائة مثقال من الفضة ، وهو دين كان اليهودي قد اقترضه منه أمام شاهدين ، ولكن الشاهدين كانا قد فارقا الحياة ، فالتوى اليهودي بالدين حامداً الله أن أتاح له هذه النعمة التي مكنته من أن يجحد دين رجل من العرب . فأفضى سيتوك همه هذا إلى زديج الذي كان قد أصبح له مستشاراً . قال زديج : « في أي مكان أقضت مثاقلك لهذا الكافر ؟ » قال التاجر : « على صخرة ضخمة قريباً من جبل أوريب . » قال زديج : « وما أخص ما يمتاز به مدينك ؟ » أجاب سيتوك : « يمتاز بالقدر . » قال زديج : « ولكني أسألك أنشط هو أم كسل ، أحمز هو أم أحمق ؟ » قال سيتوك : « هو بين الذين يلتون بالدين أعظمهم حظاً من النشاط . » قال زديج : « أتأذن أن أكون محاميك أمام القضاة ؟ » . ثم دعا اليهودي أمام المحكمة وتحدث إلى القضاة على هذا النحو : « يا وسائد العرش الذي يستقر عليه العدل ، إنني أطلب إلى هذا الرجل نيابة عن سيدي خمسمائة مثقال من الفضة قد التوى بها وأبى أن يؤديها . » قال القاضي : « أعندك بينة ؟ » قال زديج : « لا ! لقد مات الشاهدان ، ولكن هناك

صخرة عريضة عدت عليها المثاقيل ، فإذا أذنت المحكمة بحمل هذه الصخرة فقد أرجو أن تشهد لي وسنبقى نحن هنا حتى تحمل الصخرة وسأرسل من يحملها على نفقة سيدي سيتوك » قال القاضي : « لا بأس . » وجعل ينظر في قضايا أخرى . فلما كان آخر الجلسة قال لزديج : « ألم تأت صخرتكم بعد ؟ » فتصاحك اليهودي قائلاً : « تستطيع عظمتكم أن تبقى في الجلسة إلى غد دون أن تحضر الصخرة ، فهي تقوم على بعد ستة أميال ، ولا يستطيع أن يحولها عن مكانها أقل من خمسة عشر رجلاً . » فصاح زديج « ألم أقل لكم إن الصخرة ستشهد لي ؟ فما دام هذا الرجل يعرف مكانها فهو يقر بأن المثاقيل قد عدت عليها » فبهت اليهودي واضطر آخر الأمر إلى الاعتراف ، وأمر القاضي بأن يشد هذا الرجل إلى الصخرة ولا يقدم إليه طعام ولا شراب حتى يؤدي الدين . ومنذ ذلك الوقت أصبح العبد زديج والصخرة موضع ثقة وثناء في بلاد العرب .

الفصل الحادي عشر

التحريق

وبلغ الرضا من سيتوك أن جعل من عبده لنفسه خليلاً ، وأصبح لا يستطيع أن يستغني عنه كما كان ذلك شأن الملك في بابل . وكان زديج سعيداً لأن سيده لم يتخذ لنفسه زوجاً . وكان يتبين في سيده طبعاً ميالاً إلى الخير وكثيراً من الاستقامة في السيرة والإصابة في التقدير . وساءه أن سيده كان يعبد جيش السماء أي الشمس والقمر والنجوم ، كما جرت بذلك عادة العرب . وكان يتحدث إليه في ذلك متحفظاً أشد التحفظ . ثم قال له آخر الأمر : « إن هذه الكواكب والنجوم ليست إلا أجساماً كغيرها من الأجسام ، وليست أحق بالتعظيم من شجرة أو صخرة . » قال سيتوك : « إنها كائنات خالدة تحقق لنا منافعنا كلها ، فهي تشيع الحياة في الطبيعة وتدبر فصول العام ، وهي بعد ذلك بعيدة عنا بحيث لا نستطيع

إلا تقديسها . » قال زديج : « إن البحر الأحمر يحقق لك من المنافع أكثر مما تحقق لك هذه الكواكب حين يحمل تجارتك إلى الهند . وما يمنعه أن يكون قديم العهد كالنجوم ؟ وإذا لم يكن بد من أن تعبد ما بعد عنك فقد يجب أن تعبد أرض جنجاريد التي هي في أقصى العالم . » قال سيتوك : « كلا ! ان النجوم مشرقة إشراقاً يفرض عليّ عبادتها . » فلما جن الليل أشعل زديج عدداً ضخماً من المصابيح في الخيمة التي كان يجب أن يجلس فيها إلى العشاء مع سيتوك . فلما أقبل مولاه جثا أمام هذه المصابيح قائلاً : « أيها الضوء المشرق الخالد وفقني دائماً لما أريد . » ثم جلس إلى المائدة دون أن ينظر إلى سيتوك قال سيتوك دهشاً : « ما خطبك ؟ » قال زديج : « إنما أصنع صنيعك ، فأعبد هذه المصابيح وأهمل سيدها وسيدي . » هنالك فهم سيتوك فحوى هذه الإشارة ، ونفذت حكمة عبده إلى نفسه ، فأعرض عن عبادة المخلوقات وعبد الخالق الخالد الذي فطرها .

وكانت تتحكم في بلاد العرب لتلك الأيام عادة منكرة نقلت إليها من بلاد السيتين بعد أن استقرت في الهند بفضل البراهمة وكادت تعم الأرض كلها . وكانت هذه العادة تقضي إذا مات رجل وأرادت امرأته أن تكون قديسة أن تحرق نفسها على جسم زوجها بمشهد من الناس . وكان ذلك يجري في حفل عظيم يسمى حريق الترمل .

وكانت القبيلة الي تعد كثيراً من النساء المحرقات تمتاز بحسن الذكر وبعد الصوت . وقد مات عربي من قبيلة سيتوك ، فقررت زوجته ألونا وكانت صالحة ، أن تتبعه ، وأعلنت اليوم والساعة للذين اختارتهما لتلقي نفسها في النار على قرع الطبول ودعاء المزامير . وقد أظهر زديج لسيتوك أن هذه العادة البشعة مسيئة أشد الاساءة إلى النوع الانساني ، فهؤلاء النساء اللاتي يتركن نهياً للحريق في كل يوم خليقات أن يمنحن الدولة عدداً ضخماً من المواطنين، وأن يربين أطفالهن على أقل تقدير . وما زال به حتى أقنعه بأن من الخير إلغاء هذه العادة إن كان ذلك ممكناً . قال سيتوك : « لقد مضى أكثر من خمسمائة وألف عام والنساء يحرقن ، فأينا يجروء على أن يغير قانوناً قدسه الزمن ؟ هل يوجد شيء أجدر بالاحترام من ظلم بعدد به العهد ؟ » قال زديج : « ان العقل أقدم من هذه العادة . فتحدث أنت إلى شيوخ القبيلة وسأذهب أنا إلى هذه الأرملة الشابة . »

فتلطف حتى قدم إليها ، ثم جعل يتملقها بالثناء على جمالها . ثم بين لها أن مما يحزن ويسوء أن يحرق سحرها العظيم للنار ، ثم أثنى على ثباتها وشجاعتها . ثم قال لها : « أكنت تحبين زوجك إذن حباً جمأ ؟ » قالت : « أنا .. كلا لم أحبيه قط ! لقد كان عنيفاً غيوراً لا سبيل إلى احتماله ، ولكنني على ذلك مصرة على أن أحرق

نفسى في أثره « قال زديج : « يجب أن تكون هناك لذة لا نظير لها في أن يحرق الانسان نفسه حياً . » قالت السيدة : « هذا شيء ترتعد له الفرائص ، ولكن لا بد مما ليس منه بد . إني تقيه ، وما أحب أن أشتهر بالسوء ولا أن أتعرض للسخرية لاجتناب هذه النار . » فبين لها زديج أنها إنما تحرق نفسها لإرضاء لغيرها ، وأن الغرور هو الذي يدفعها إلى ذلك . ثم ما زال يرفق بها حتى حجب إليها الحياة شيئاً ما ، بل استطاع أن يعطفها قليلاً على هذا الذي كان يتحدث إليها ثم قال لها : « مسا عسى أن تصنعى لو برئت من هذا الغرور الذي يدفعك إلى النار ؟ » قالت السيدة « واحسرتاه لو برئت من هذا الغرور لطلبت إليك أن تتخذني لنفسك زوجاً . »

ولكن زديج كان مشغولاً بحب أساتريته ، فلم ير بدأ من أن يروغ عن هذا الدعاء ثم سعى إلى شيوخ القبيلة ، وطلب إليهم أن يصدروا قانوناً يحظر على كل أرملة أن تحرق نفسها دون أن تخلو ساعة كاملة إلى فتي من الفتيان . ومنذ ذلك الوقت لم تحرق عربية نفسها ، ودانت بلاد العرب لزديج بهذه المكرمة التي ألغى بها في يوم واحد عادة مضت عليها القرون وأصبح زديج محسناً إلى بلاد العرب كلها

الفصلُ الثاني عشر

العشاء

وقد أصبح سيتوك حريصاً على ألا يفارق زديج هذا الذي استقرت الحكمة في قلبه ، فاستصحبه إلى سوق البصرة حيث كان يلتقي أكبر التجار في جميع أقطار الأرض التي يسكنها الناس . وكان لقاء عدد ضخم من الناس على اختلافهم في الوطن والمنزلة والطبقة مصادر عزاء لزديج عن بعض هممه . وقد خيل إليه أن العالم إنما هو أسرة كبيرة قد اجتمعت في البصرة . فلما كان اليوم الثاني من إقامته في البصرة جلس إلى مائدة العشاء مع جماعة فيهم المصري والهندي من جنجاويد ، والنازح من أرض كتاي ، واليوناني ، والكلتي ، وآخرون من الغرباء . وكل هؤلاء الناس قد تعودوا الرحلة إلى شط العرب حتى تعلموا شيئاً من العربية كانوا يديرون به الحديث فيما بينهم . وكان المصري يظهر شديد الغضب ، وكان يقول :

« ما أقبح البصرة من بلد ! إن أهلها يأبون أن يقرضوني ألف مثقال من ذهب على أن يرتنوا بها أقوم عين في الدنيا . » قال سيتوك : « وكيف كان ذلك ؟ وما هذه العين التي لم يرتنوها بهذا المال ؟ » قال المصري : « جثة عمي ، وكانت أرضى نساء مصر خلقاً ، وكانت ترافقني دائماً فماتت في بعض الطريق ، وقد اتخذت منها أحسن ما عرفت مصر من المومياء . ولو رهنتها في وطني لأخذت عليها كل ما طلبت من مال ، وإنه لغريب أن يضمن عليّ بألف مثقال مع أنني أقدم في سبيلها هذا الرهن القيم الخطير . » وكان في أثناء غضبه يتهمياً لأكل دجاجة سلبق . فأخذ الهندي بيده وصاح متألماً : « ماذا تريد أن تصنع ؟ » قال صاحب المومياء : « أريد أن آكل من هذه الدجاجة . » قال الهندي : « إياك أن تفعل ! فقد يجوز أن يكون روح عمك قد تقمص هذه الدجاجة ، وما أراك تحب أن تأكل عمك . وإن في طبخ الدجاج لإهانة بالغة للطبيعة . » قال المصري الغضوب : « ماذا تريد أن تقول حين تحدثنا عن طبيعتك ودجاجك ؟ إنا نعبد الثور ونأكل منه مع ذلك . » قال ساكن شاطئ الجانج : « أمكن أن تعبدوا ثوراً ؟ » قال المصري : « لا غرابة في ذلك ، فنحن نعيش على عبادة الثور منذ خمسة وثلاثين ومئة ألف من السنين . لم ينكر ذلك أحد منا . » قال الهندي : « خمسة وثلاثون

ومئة ألف ! هذا غلو في الحساب . فلم تسكن الهند إلا منذ ثمانين ألف سنة ونحن مع ذلك أقدم منكم ، ليس في ذلك شك . وقد حرم علينا براهما أن نأكل من الثور قبل أن تضعوه أنتم على المذابح لتعبده ، وفي النار لتأكلوه . « قال المصري : « إنك لتضحكني حين تذكر براهما لتوزن بينه وبين آبيس . وماذا تظن أن براهما قد صنع من غرائب المعجزات ؟ ؟ » قال البراهمي : « هو الذي علم الناس القراءة والكتابة ، وهو الذي تدين له الأرض كلها بلعبة الشطرنج . « قال كلداني كان يجاورهما : « لقد أخطأت ! إنما يونس الحوت هو الذي أسدى إلى الناس هذه المكارم ، فينبغي أن يرد إليه حقه ويعرف له فضله . والناس جميعاً يبنونك بأنه كان كائناً إلهياً له ذيل مذهب ورأس إنسان ، وأنه كان يخرج من الماء ليعظ أهل الأرض ثلاث ساعات في كل يوم وقد ولد له بنون كثيرون وكلهم كان ملكاً كما يعرف الناس جميعاً وان عندي صورة له أعبدوها كما ينبغي لها أن تعبد . وللناس أن يأكلوا من لحم الثور ما أحبوا ، ولكن ليس لهم أن يطبخوا السمك ومع ذلك فأنتم تنتميان إلى أصل حديث العهد قليل الحظ من الشرف فما ينبغي لكما أن تجادلا فالأمة المصرية لا تعد إلا خمسة وثلاثين ومئة ألف عام ، والهند لا تفاخر إلا بثمانين ألف عام ، أما نحن فإن تقاومنا تسجل أربعة آلاف من القرون . فاسمعا لي وأعرضا عن

هذا الهذيان ، وأنا زعيم أن أهدي إلى كل واحد منكما صورة من صور يونس »

قال ساكن كميلو : « لاني أكبر المصريين ، والكلدانيين ، واليونان ، والكلتيين ، وبراهما ، والثور آبيس ، والحوت العظيم يونس ، ولكن ربما كان « اللي » وهو نور الطبيعة أو « القيان » وهو السماء والإله أحق بالتكرمة من الثور والسماك . ولن أقول شيئاً عن وطني فهو أكبر من مصر وبلاد الكلتيين والهند جميعاً . ولن أجادل في قدم العهد ، فحسب الإنسان أن يكون سعيداً . وليس أهون من أن يكون قديم الأصل . وإذا لم يكن بد من ذكر التقاويم فإنني أقول إن آسيا كلها تستعير تقاويمنا ، وإننا أحسننا وضع التقاويم قبل أن يتعلم الكلدانيون الحساب . »

هنالك صاح اليوناني : « إنكم جميعاً لجاهلون ! ألا تعلمون أن الكاووس هو أصل كل شيء ، وأن المادة والصورة هما اللتان جعلتا العالم كما هو الآن ؟ » وقد تكلم هذا اليوناني فأطال الكلام . ولكن الكلتي الذي أسرف في الشرب أثناء هذا الحوار ظن أنه أعلم منهم جميعاً ، وصاح قائلاً ان ليس غير توته والبلوط شيء يستحق التكريم والإجلال . وأنه هو يحمل دائماً من هذا الزهر في جيبه ، وأن أجداده السيتيين هم وحدهم أهل الخير في الأرض كلها ، وأنهم في الحق ربما أكلوا جسم الإنسان ، ولكن ذلك لا يمنع من أن من الحق على الناس أن يعرفوا لهم

قدرهم ، وأن من ذكر توته بسوء فسيعلمه كيف ينبغي أن يعيش .

وقد اشتدت الخصومة حينئذ ، ورأى سيموك أن المائدة توشك أن يصبغها الدم . وكان زديج قد احتفظ بالصمت أثناء هذا الحوار كله ، فنهض إذ ذاك ثم اتجه إلى الكلتي لأنه كان أشد القوم غضباً وقال له إنه مصيب ، وطلب إليه بعض زهره ، وحمد لليوناني بلاغته ، وهدأ النفوس النائرة . ولم يقل لصاحب كنائي إلا قليلاً لأنه كان أعقل القوم جميعاً . ثم قال لهم جميعاً : « أيها الأصدقاء لقد كدتم تختصمون في غير طائل لأنكم جميعاً متفقون . » هنالك تصايح القوم . قال للسيبي : « أليس من الحق أنك لا تعبد الزهر والبلوط . وإنما تعبد صانعها ؟ » قال الكلتي : « لا شك في ذلك . » « وأنت يا سيدي المصري إنما تعبد في بعض الثيرة من خلق لك الثور . » قال المصري « نعم . » « ويونس الحوت يجب أن يذعن لمن خلق البحر والسماك . » قال الكلداني : « أوافق على ذلك . » قال : « والهندي والكاتي يعترفان من غير شك بالمبدأ الأول لكل شيء . ولم أفهم هذا الكلام الرائع الذي تكلم به اليوناني ، ولكنني واثق بأنه يسلم بوجود كائن عظيم هو الذي أنشأ المادة والصورة . » قال اليوناني وقد أحس الإعجاب به : « إن زديج قد فهم عنه حق الفهم . » قال زديج : « فأنتم إذن على رأي واحد ، وليس

هناك ما يدعو إلى الخصومة . « فأقبل القوم عليه يعانقونه .
ثم باع سيتوك تجارته بيعاً راجحاً وعاد مع صديقه إلى
قبيلته ، ولكن زديج عرف عند وصوله أن قضيته قد
نظرت أثناء غيبته ، وأن الحكم قد صدر عليه أن يحرق
في نار هادئة .

مكتبة سوره الأريكية
www.books4all.net

الفصل الثالث عشر

الموعد

وكان كهنة الكواكب قد أزمعوا أثناء رحلته إلى البصرة أن يعاقبوه . فقد كانت جواهر الأرامل اللاتي يرسلن إلى النار وحليهن تؤول إليهم ، فلم يكن أقل من أن يحرقوا زديج عقاباً له على ما جرّ عليهم من خسارة . فآتهموه إذن بسوء رأيه في جيش السماء ورفعوا القضية ، وأقسموا على أنهم قد سمعوه يقول إن نجوم السماء لا تغرب في البحر . وقد ارتعد القضاة لهذا الكفر الشنيع ، وكادوا يمزقون ثيابهم حين سمعوا هذا المنكر من القول ، وقد كانوا أحرىء أن يفعلوا لو علموا أن لزديج من المال ما يعوض عليهم ثيابهم ، ولكنهم حين انتهى بهم الألم إلى أقصاه اكتفوا بالحكم عليه أن يحرق في نار هادئة . وقد جزع سيتوك وأنفق ما كان يملك من جهد لينقذ صديقه ، ولكنه أكره على الصمت إكراهاً . هنالك أزمعت الأرملة

الشابة ألوونا أن تتمّده ، وكانت قد أحبّت الحياة بفضل
زديج ، فأرادت أن تعصمه من النار التي بيّنت لها ما فيها
من الظلم . فأدارت رأسها في رأسها دون أن تتحدّث به
إلى أحد ، وكان مقرراً أن يحرق زديج من غده ، فلم
يكن أمام الأرملة إلا الليل لإنقاذه . وإليك الخطة التي
دبرتها في رحمة ورفق وحذر

تعطرت وازينت حتى جعلت جمالها ساحراً فتناً ، ثم
طلبت لقاء خاصاً إلى رئيس كهنة النجوم . فلما مثلت أمام
هذا الشيخ الجليل قالت له : « أيها الابن البكر للدب
الأعظم يا أبا الثور ، وابن عم الكلب الأكبر - وكانت
هذه ألقاب رئيس الكهنة - لقد أقبلت أفضي إليك بذات
نفسي . إنني لمشفقة أن أكون قد وقعت في خطيئة عظيمة
حين لم أحرق نفسي في أثر زوجي العزيز وعلى ماذا أردت
أن أبقى على جسم هالك قد أخذت فيه السن ! » قالت ذلك
وهي تخرج من كمها الحريري الطويل ذراعها العارية ذات
الصورة الرائعة والبياض الحلاب ، قالت : « انظر ما
أهون هذا وما أقل خطره ! » ووجد زعيم الكهنة في
دخيلة نفسه أن هذا شيء عظيم الخطر ، قالت ذلك عيناه
وأكد ذلك فمه ، فقد أقسم أنه لم ير قط في حياته أجمل
من هذه الذراع . قالت الأرملة : « واحسرتاه ! لعل
الذراع أن تكون خيراً من سائر الجسم ، ولكنك توافقني
على أن النحر لم يكن خليقاً بعناتي . » ثم أظهرت أجمل

ثدي صنعته الطبيعة لو قرن إليه زر من الورد على تفاحة
من العاج لأذي بها ، ولو قرنت إليه الحملان بعد غسلها
لظهرت بالقياس إليه صفراء مشبعة بالسمرة هذا النحر ،
وهاتان العينان الكبيرتان الفاترتان المشرقتان بنار رفيقة ،
وهذان اللذان اللذان يزدهيان بأجمل الأرجوان قد خالطه
بياض اللبن النقي ، وأنفها الذي لم يكن كبرج جبل لبنان ،
وشفتاها اللتان كانتا كطرفي محارة من مرجان تضمر أجمل
ما في بحر العرب من اللآلي^(١) ، كل هذا مجتمعاً
أشعر الشيخ بأنه ابن عشرين ، فأعلن إليها حبه متلعماً .
ولما رأته ألوأنا ملتهباً سأله العفو عن زديج ، قال :
« واحسرتاه أيتها السيدة الحسنة لو أجبتيك إلى ما تطلين
لما أغنى عفوي عنه شيئاً . فقد يجب أن يمضي هذا العفو ثلاثة
آخرون من الزملاء . » قالت ألوأنا : « فامض أنت . »
قال الكاهن : « مع السرور بشرط أن يكون عطفك
ثمناً لعفوي . » قالت ألوأنا : « إنك لتغلو في تشريفي ،
فتفضل بزيارتي إذا غربت الشمس وأشرقت في الأفق
النجمة شيت ، فستجدني على إيوان وردي اللون ، وستصنع
بخادمك ما تشاء . » ثم خرجت ومعها الإمضاء ، وتركت
الشيخ يصرعه الحب ويخيفه الشك في قوته ، وأنفق سائر
اليوم في حماه ، واحتسى شراباً مزاجه من قرفة سيلان
وبهار تيدوروترنات ، وانتظر وقد كاد يفقد الصبر أن

١ تعريض في هذا الوصف كله ببعض ما في نشيد الأناشيد .

تظهر النجمة شيت في الأفق .

وفي أثناء ذلك مضت ألوونا الحساء فلقبت الكاهن الثاني ، فأكد لها أن الشمس والقمر وكل ما في السماء من نجوم ليست إلا ناراً موهومة بالقياس إلى سحرها . فطلبت إليه العفو نفسه ، وطلب إليها أن تؤدي ثمنه ، فأظهرت الإذعان وضربت موعداً للكاهن الثاني حين تشرق النجمة الجنيب . ثم مضت إلى الكاهن الثالث وإلى الكاهن الرابع ، ظافرة دائماً بالإمضاء ، ضاربة موعداً من نجم إلى نجم . ثم طلبت إلى القضاة أن يلموا بدارها لأمر ذي بال ، فلما حضروا أظهرت لهم الأسماء الأربعة ، وأنبأهم بأي ثمن باع الكهنة عفوهم عن زديج . وأقبل كل واحد من الكهنة في مواعده ، ودهش كل واحد منهم حين رأى زملاءه وبنوع خاص حين رأى القضاة الذين تبنوا خزيم واضحاً . وكذلك نجا زديج ، أما سيتوك فقد فننته مهارة ألوونا ، فاتخذها له زوجاً .

الفصل الرابع عشر

الرقص

وكان على سيتوك أن يذهب بتجارته إلى جزيرة سرنديب ،
ولكن الشهر الأول لزواجه - وهو كما يعلم الناس جميعاً
شهر العسل - لم يسمح له بفراق امرأته ولا بتخيل أنه
يستطيع فراقها إلى آخر الدهر ، فتقدم إلى خليله زديج أن
يقوم عنه بهذه الرحلة . وكان زديج يقول في نفسه :
« واحسرتاه ! أجب أن أمن في السفر حتى أجعل بين
أستارتيه وبينني أبعد الآماد ! ولكن يجب أن أخدم من
أحسنوا إليّ . » قال ذلك ثم بكى ثم ارتحل .

ولم يمض عليه قليل من الوقت في جزيرة سرنديب حتى
نُظر إليه على أنه متفوق ممتاز ، وقد أصبح حكماً بين
كبار التجار وصدقاً للحكام ومشيراً على هذه القلعة من
الناس الذين يحبون أن يستشيروا . وقد أراد الملك أن يراه
ويسمع عنه . فما أسرع ما عرف قيمته ووثق بحكمته

واتخذته خليلاً . وقد اضطرب زديج لما وجد عند الملك من إلف ومودة . فقد كان في أثناء الليل والنهار مروعاً بما جرت عليه عشرة مؤبدار من شقاء . وكان يقول لنفسه : « لقد أعجبت الملك ، أفلا يمكن أن يسوقني هذا إلى التهلكة ؟ ولم يكن من الممكن مع ذلك أن يتخلص من لطف الملك ، فيجب أن نعرف بأن نابوسان ملك سرنديب ، ابن نوساب ابن نابسون ، ابن سنبوسنا كان من خبرة ملوك آسيا ، وكان عسيراً على من تحدث إليه ألا يجبه .

وكان هذا الملك الكريم ممدحاً دائماً ، مغشوشاً دائماً ، مسروقاً دائماً ، وكان صاحب بيت المال في سرنديب قدوة في ذلك يتبعها الموظفون جميعاً . وكان الملك يعلم ذلك ، وقد غير صاحب بيت ماله غير مرة ، ولكنه لم يستطع تغيير السنّة المقررة التي تقتضي أن يقسم دخل الملك إلى قسمين غير متساويين . يبقى أصغرهما لجلالته ، ويؤول أكبرهما إلى الموظفين .

وقد أفضى الملك نابوسان بهمه هذا إلى زديج . قال له ذات يوم : « انك تعرف أشياء كثيرة قيمة . فهل تعرف الطريق إلى أن أجد خازناً للمال لا يخون ؟ » قال زديج : « ليس في ذلك شك ، اني أعرف السبيل الآمنة إلى أن أجد لك خازناً تقي اليدين » . قال الملك مأخوذاً وهو يقبله : « ما عسى أن تكون هذا السبيل ؟ » قال زديج :

إنما هي أن ندعو المرشحين لهذا المنصب جميعاً إلى الرقص ، وأبهم كان رقصه خفيفاً نشيطاً فائتمنه على بيت مالك . قال الملك : « إنك لتمزح ، وإنها لطريقة رائعة يختار بها الأمين على بيت المال . ماذا أتزعم أن أحسن الناس وثباً وعبثاً بقدميه هو الخازن الأمين النقي ؟ » قال زديج : « لا أزعم لك أنه سيكون أمهر الخزان ، ولكني أؤكد أنه سيكون أعظمهم حظاً من الأمانة » وكان زديج يقول هذا في ثقة وحزم ، حتى خيل إلى الملك أن لديه سرّاً خارقاً يعرف به دخائل المديرين للأموال . قال زديج : « إنني لا أحب الخوارق وقد ضقت دأباً بأصحابها وبالكتب التي تخوض فيها . فإذا أذنت جلالتك لي في تنظيم الامتحان الذي أقترحه فستعلم أن السر يسير لا عسر فيه ولا التواء . » وقد دهش نابوسان ملك سرنديب حين سمع أن هذا السر يسير سهل أكثر مما كان خليقاً أن يدهش لو قيل له إن السر خارق لقوانين الطبيعة . قال لزديج : « هو ذاك ، فنظم الامتحان كما تشاء . » قال زديج : « دعني أفعال وستريح من هذا الامتحان أكثر مما تقدر . » وفي اليوم نفسه أعلن باسم الملك أن من يرشح نفسه لإدارة بيت المال للملك نابوسان بن نوسناب فعليه أن يتخذ ثوباً من حرير رقيق ، وأن يسعى إلى قصر الملك في اليوم الأول من شهر التمساح . وقد سعى المرشحون إلى القصر وكان عددهم أربعة وستين رجلاً ، وكانت قد أعدت في الحجرة

المجاورة جوقة موسيقية .

وقد أعد للرقص كل شيء ولكن بساب الحجره ظلّ مغلقاً ، وكان من أراد الوصول إلى الحجره سلك اليها ممراً ضيقاً مظلماً بعض الشيء . وأقبل حاجب فقاد المرشحين واحداً في إثر واحد إلى الحجره من هذا الممر ، وجعل يترك كل واحد منهم فيه منفرداً دقائق ، وكان الملك قد عرف سر زديج فعرض كتره كله في هذا الممر . فلما انتهى المرشحون جميعاً إلى الحجره أمر الملك بتريقصهم . ولم ير أحد قط راقصين رقصوا في غير ظرف ولا خفة كهؤلاء الناس الذين كانوا يرقصون وقد خفضوا رؤوسهم وحنوا ظهورهم وألقوا أذرعهم بجيوبهم ، وكان زديج يقول همساً : « يا لهم من خونة ! » وكان واحد منهم ليس غير ، يرقص رقصاً خفيفاً مرفوع الرأس مطمئن الحظ مستقيم القد ممدود الذراعين ثابت الساقين . وكان زديج يقول : « يا له من رجل شريف ! يا له من رجل كريم ! » وقد قبل الملك هذا الراقص المجيد وجعله على خزائنه وعوقب الآخرون وفرضت عليهم الغرامات في أدق العدل وأقومه ، فقد كان كل واحد منهم أثناء اجتيازه للممر قد ملأ جيوبه حتى أثقله ما حمل ، فلم يكن يرقص إلا في جهد شديد . وقد حزن الملك على الطبيعة الإنسانية ، إذ رأى بين أربعة وستين راقصاً ثلاثة وستين سارقاً . وسمي الممر المظلم دهليز الإغراء . ولو وقع هذا الحادث

في فارس لسبق الثلاثة والستون رجلاً إلى العذاب ، ولو وقع هذا الحادث في بلد آخر لحوكم هؤلاء الناس أمام محكمة ينفق عليها ثلاثة أمثال المسال المسروق ، دون أن تعيد إلى خزانة الملك شيئاً . وفي بعض البلاد الأخرى كان هؤلاء السارقون يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم أحسن الدفاع ، وأن يصبوا غضب الملك على هذا الراقص الخفيف . أما في سرنديب فلم يقض على هؤلاء الناس إلا بإغناء بيت المال ، لأن نابوسان كان رجلاً حليماً عفواً

وكان كذلك عارفاً للجميل ، فأهدى إلى زديج مالا عظيماً أعظم مما سرق أي سارق من خزانة الملك . وقد انتفع زديج بهذا المسال ، فأرسل رسالاً إلى بابل ليعلموا له علم أستاذه . وقد اضطرب صوته حين أصدر أمره إلى الرسل وعاد دمه إلى قلبه ، وغشيت عينه سحابة من ظلمة ، وكادت نفسه تفارقه ، وقد أبحر الرسل ورآهم زديج يبحرون ، فعاد إلى قصر الملك . ولما لم ير أحداً ظن نفسه في خلوة فنطق لسانه بلفظ الحب . قال الملك : « الحب ! إنه هو الذي يشغلني . لقد استطعت أن تعرف مصدر حزني . انك لرجل عظيم ، ولاني لأرجو أن تدلني على الطريق التي أعرف بها امرأة أمينة شريفة كما دلتني على الطريق التي اهتديت بها إلى خازن أمين . » وقد تاب زديج إلى نفسه ، ووعد الملك بأن يعينه على الحب كما أعانه على تدبير المال ، وإن كان أمر الحب أشد عمراً .

الفصل الخامس عشر

العيون الزرق

قال الملك لزديج « الجسم والقلب .. » فلم يستطع البابلي إلا أن يقاطع الملك قائلاً : « ما أشد شكري لك لأنك لم تقل العقل والقلب ! فإننا لا نسمع إلا هاتين الكلمتين في أحاديث البابليين . وما أكثر ما نقرأ من الكتب التي تتحدث عن القلب والعقل ، وقد أنشأها قوم لا حظَّ لهم من قلب أو عقل . ولكن تفضل يا مولاي فأتم حديثك » قال نابوسان : « إن جسمي وقلبي قد خلقا للحب ، وقد رضي الأول ، ففي قصري مئة امرأة قد خصصت لخدمتي ، وكلهن حسان طائعات سابقات إلى ما أريد ، بل محبات للذة أو متكلفات هذا الحب ابتغاء مرضاتي ولكن قلبي بعيد أشد البعد عن السعادة فقد تبينت أكثر مما ينبغي أن هؤلاء النساء يمتعن ملك

سرنديب ، ولا يفكرون في نسابوسان . ولست أظن بنسائي
خيانة أو إثماً ، ولكن أود لو أجد نفساً تخلص لي ولو
قد ظفرت بهذا الكنز لافتديته بهذه المئة من الحسان اللاتي
يمتعني بسحرهن ، فانظر هل تجد في هذه المئة من السلطانات
واحدة أستطيع أن أثق بأنها تحبني ؟

فأجابه زدبيج على نحو ما أجابه حين ذكر له الخزان :
« مولاي ، دعني أفعل ، وائذن لي في أن أتصرف في
الكنوز التي عرضتها في المر ، وسأرفع اليك حسابها ولن
تفقد منها شيئاً » فترك له الملك الأمر كله . وتخير هو
من بين أهل سرنديب ثلاثة وثلاثين رجلاً كلهم أحذب
وكلهم قد مني بقبج بشع ، وتخير كذلك ثلاثسة وثلاثين
من خدام القصر كلهم رائع الجمال ، وثلاثة وثلاثين كاهناً
كلهم فصيح وكلهم قوي ، وترك لهم جميعاً الحرية في
أن يدخلوا على السلطانات في مقاصيرهن . وأتيح لكل
أحذب أربعة آلاف دينار يغري بها . فلم يمض اليوم
الأول حتى كان الحذب جميعاً سعداء . أما خدام القصر
الذين لم يكن لديهم ما يعطون إلا أنفسهم فلم ينتصروا إلا
بعد يومين أو ثلاثة أيام أما الكهنة فقد وجدوا مشقة
أشد ، ولكن ثلاثاً وثلاثين من الصالحات سمحن لهم آخر
الأمر . وكان للملك نوافذ يشرف منها على هذه المقاصير
فراى هذا الامتحان كله وبلغ منه العجب أقصاه . وقد
راى تسعاً وتسعين من نسائه يسقطن بمنظر منه . وبقيت

واحدة شابة حديثة لم يذن منها الملك قط . فأرسل إليها
أحدب وأحدبان وثلاثسة عرضوا عليها أكثر من عشرين
ألف دينار . ولكنها ثبتت على الشرف ، وضحكت من
هؤلاء الحدب الذين قدروا أن المال يبلغهم ما يشاؤون .
ثم قدم إليها خادمان هما أروع الخدم جلالاً ، فقالت إنها
ترى الملك أجمل منهما . ثم أغرى بهما أفصح الكهنة ثم
أقواهم . فوجدت أولهما ثرثاراً ولم تلتفت إلى ثانيهما
وكانت تقول « إن القلب هو كل شيء ، ولن أستسلم
آخر الدهر لأحدب من أجل ماله ، ولا لشاب من أجل
جماله . ولا لكاهن من أجل فنتته ، إنما أحب نابوسان بن
نوسناب . وسأنتظر أن ينتزل فيحبنى . » هنالك غلب
الفرح والدهش والحنان على الملك ، فأخذ كل ما قدم
الحدب إلى النساء من مال وقدمه هدية إلى السلطانة الشابة
وكانت تسمى فاليد . ثم أهدى إليها قلبه وكانت خليقة
به ، ولم ير قط زهرة الشباب أشد اشراقاً ولا سحر الجمال
أشد فتنه للقلوب كما رأهما فيها . والدقة التاريخية لا تسمح
بأن نخفي أنها لم تكن تحسن التحية ، ولكنها كانت ترقص
رقصاً رائعاً ، وتغني كينات البحر ، وتحدث كألهة
الجمال ، وكان حظها عظيماً من الفضيلة والذكاء .
وقد أحببت نابوسان ، وعبدها هو ، ولكن عينيها
كانتا زرقاوين ، وكانت زرقه عينيها مصدر شقاء عظيم .
وكان في بابل قانون قديم يحظر على الملك أن يحب امرأة

من هؤلاء النساء اللاتي سماهن اليونانيون فيما بعد ذوات
عيون المها . وكان زعيم الكهنة قد شرع هذا القانون منذ
خمس آلاف سنة ، أراد بذلك أن يستأثر بخليفة الملك الأول
بجزيرة سرنديب ، وجعل هذا القانون جزءاً من دستور
الدولة ، فما هي إلا أن تسعى طبقات الدولة كلها إلى الملك
لترفع إليه احتجاجها . وسجى على الألسنة كلها أن ساعة
المملكة قد اقتربت ، وأن الشر قد بلغ أقصاه ، وأن
الطبيعة كلها معرضة لخطر عظيم ، لأن نابوسان بن نوساب
يحب عينين كبيرتين زرقاوين . وقد امتلأت المملكة بشكاة
الحذب ورجال المال والكهنة والنساء السمر

وانتهز الشعب المتوحش الذي يسكن شمال الجزيرة فرصة
هذا السخط العام ، فأغار فجأة على مملكة نابوسان الخير ،
وطلب الملك إلى رعيته مالا ، فاكتمى الكهنة الذين يملكون
نصف الدولة برفع أيديهم إلى السماء ، وأبوا أن يدخلوها
في خزائنهم ليعينوا الملك ، وأعلنوا صلوات موسيقية رائعة ،
وتركوا الدولة نهياً للمغيرين المتوحشين .

قال نابوسان : « أيها العزيز زديج أمقذي أنت من
هذه الورطة أيضاً ؟ » قال زديج « حبساً وكرامة ،
ستظفر من أموال الكهنة بكل ما تريد . فدع الأرض التي
أقاموا عليها قصورهم ودافع عن أرضك وحدها . » وقد
استجاب نابوسان إلى زديج ، فما أسرع ما أقبل الكهنة
إليه ضارعين يلتمسون معونته . وقد أجابهم الملك بصلاة

موسيقية رائعة توصل فيها إلى السماء أن تحمي أرضهم من
العدوان . هناك قدم الكهنة أموالهم ، وانتهى الملك بالحرب
إلى غايصة سعيدة . وكذلك جر زديج على نفسه بمشورته
الحكيمة الموفقة وخدمته العظيمة عداوة لا هوادة فيها من
أكبر رجال الدولة . فأقسم الكهنة والنساء السمر ليهلكنه ،
وتحالف الحذب ورجال المال على أن ينغصوا عليه الحياة .
وما زالوا به حتى شككوا فيه الخير نابوسان . وقد قضى
زرادشت بأن ما يؤدي من خدمة يظل في حجرة الانتظار
وبأن الشك والريبة ، ينفذان إلى ما وراء الأبواب . وكان
كل يوم يتكشف عن اتهام جديد . فأما التهمة الأولى
فتدفع ، وأما التهمة الثانية فتمس مسأ رقيقاً ، وأما الثالثة
فتجرح ، والرابعة هي التي تقتل

وكان زديج قد ارتاع لما رأى ، وكان قد باع تجارة
صديقه سيتوك وحصل أمواله ، فلم يفكر منذ ذلك الوقت
إلا في الرحيل ، وأزمع أن يذهب بنفسه ليعلم علم أستاذه .
وكان يقول لنفسه : « إن أقت في سرنديب دفعني الكهنة
إلى العذاب . ولكن إلى أين سأذهب ؟ سأكون رقيقاً في
مصر ، وسأحرق في أكبر الظن إن ذهبت إلى بلاد العرب ،
وسأشتق في بابل . ومع ذلك يجب أن أعلم مصير أستاذه .
فلترحل ولننظر ماذا ادخر لي القضاء الكتيب »

الفصل السادس عشر

قاطع الطريق

بلغ زديج الحدود التي تفصل بين براء وسوريا ،
فرأى قصرأ عظيماً خرج منه أعراب مسلحون ، ورأى
نفسه وقد أحيط به والأعراب من حوله يتصيحون : « كل
ما معك من مال فهو لنا ، أما شخصك فاسيدنا » وقد
أجاب زديج فاستل سيفه ، وكان خادمه شجاعاً فصنع
صنيعه . وما هي إلا أن يصرعا من الأعراب أول من
تقدم اليهما ليضع عليهما يده ، ثم تضاعف العدد ، فلم
يدهشها ذلك وإنما أزمعا أن يموتا محاربين وكان رجلاان
يقاتلان جماعة ضخمة من الناس : ومروعة كهذه لا يمكن
أن تطول . وكان صاحب القصر واسمه أربوجاد ينظر من
احدى النوافذ ، فلما رأى بلاء زديج ونجدته أحبه ، فترل
مسرعا وأقبل حتى فرّق عنه الجماعة وقال « كل ما
مرّ بأرضي فهو لي ، وكل ما وجدت بأرض غيري فهو

لي أيضاً ، ولكني أراك رجلاً شجاعاً ، فقد وضعت
عنك ثقل هذا القانون العام . « ثم أدخله القصر ، وأمر
أصحابه أن يحسنوا العناية به . فلما كان المساء دعاه
إلى مائدته .

وكان سيد القصر رجلاً من هؤلاء الأعراب الذين
يسمون لصوصاً ، ولكنه كان أحياناً يأتي قليلاً من الحسنات
بين كثير من السيئات : كان يسرق في كثير من الطمع
وحب المال ، وكان يعطي في كرم وسخاء . كان شجاعاً
في الحرب ، حلو العشرة ، ماجناً على المائدة . مرحاً
في مجونه ، وكان على هذا كله شديد الصراحة ، وقد
أعجبه زديج اعجاباً شديداً ، وقد كان حديثه نشيطاً حياً
فطال جلوسه إلى المائدة ثم قال أربوجاد : « لاني أنصح
لك بأن تنضم إلى جندي ، فذلك خير ما تستطيع أن
تصنع : فإن هذه المهنة لا بأس بها ، وجائز أن تصل
ذات يوم إلى ما وصلت أنا إليه . » قال زديج : « هل
لي أن أسألك منذ كم مارست هذه المهنة الشريفة ؟ »
أجاب : « منذ شيبتي الأولى ، فقد كنت خادماً لعربي
ماهر ، وكنت أبغض مكاني منه أشد البغض ، وكنت
شديد الخلق لما كنت أرى من أن هذه الأرض التي
سخرت للناس جميعاً لم يتح لي منها نصيب . فأفضيت
بهمي إلى عربي شيخ ، فقال لي : يا بني لا تيأس ،
فقد كان في قديم الزمان حبة من رمل تشكو مر الشكوى

من أنها ذرة ضئيلة في الصحراء ، فلما مضت عليها سنون
أصبحت ماسة ، وهي الآن أبهى ما يزدان به تاج ملك
الهند . وقد أثر فيّ هذا الحديث . كنت حبة الرمل ،
فأزمنت أن أصبح ماسة . وقد بدأت فسرقت فرسين ،
ثم جمعت حولي بعض الرفاق ، وتهيأت للسطو على صغار
القوافل ، وكذلك ألغيت قليلاً ما كان بين الناس وبينني
من الفروق . وقد أخذت حظي من متاع هذه الدنيا .
ولعلي أن أكون قد نلت من الخير أضعاف ما احتملت
من الحرمان . وقد ارتفعت مكانتي بين الناس وأصبحت
أميراً قاطع طريق وأخذت هذا القصر عنوة . وقد همّ
حاكم سوريا أن ينتزعه مني ، ولكنني كنت قد بلغت من
الغنى حداً لا أخاف معه شيئاً ثم بسطت سلطاني على
جزء عظيم من الأرض ، وعهد إليّ أن أكون جايلاً
للإتاوة التي تؤديها براء إلى ملك الملوك . وقد جيئت
الإتاوة ؛ ولكن لم أؤد منها شيئاً . وقد أرسل خازن بيت
المال للملك مؤبداً في بابل حاكماً ما ليشتقي ، وقد أقبل
هذا الرجل ومعه الأمر بشنقي ، وكان يعلم كل شيء ،
وقد شقت بين يديه الأشخاص الأربعة الذين استصحبهم
اشنقي . ثم سأله ما عسى أن يغل عليه شنقي من المال ؟
قال نحو ثلاثمائة دينار ، فبينت له انه يستطيع أن يكسب
عندي أكثر من ذلك . ثم جعلته لصاً مساعداً ، وهو
الآن من خيرة رجالي . وإنك لخليق إن أطعني أن تنجح

كما نجح فلم تكن الظروف قط مؤاتية للسطو كما هي
الآن بعد قتل مؤبدار »

قال زديج : « قد قتل مؤبدار ؟ وإلام صار أمر
الملكة أستارتيه ؟ » قال أريوجاد : « لا أدري وكل ما
أعرفه هو أن مؤبدار قد جن ثم قتل ، وأن بابل قد
أصبحت موطناً للجرائم ، وأن الدولة كلها قد ظهر فيها
الفساد ، وأن هناك سبلاً إلى العمل ، وأني قد أبلت بلاء
حسناً وحقيقاً بالإعجاب . » قال زديج : « ولكن أضرخ
إليك في أن تتبني : ألا تعلم من أمر الملكة شيئاً ؟ » قال
أريوجاد : لقد حدثت عن أمير لاركانيا ، وأحسب أنها
بين إمامته إن لم تكن قد قتلت في الموقعة . ولكني أحرص
على الغنيمة مني على الأبناء . وقد أخذت في غزواتي نساء
كثيرات وبعتهن جميعاً ، وأنا أغالي بالחסان منهن دون
أن أحتفظ بواحدة منهن أو أسأل عن أنباتهن . وليس
من سبيل إلى شراء المراتب . وإن الملكة القبيحة لخليفة
ألا تجد مشرياً ولعلي قد بعث الملكة أستارتيه . ولعلها
قد ماتت . لا يعنيني شيء من ذلك ، وأنت خليف
ألا تعني بشيء من ذلك . » وكان يقول ذلك ويعمن في
الشرب حتى اختلط عليه كل شيء . ولم يستطع زديج أن
يعلم منه شيئاً .

فلبت ذاهلاً واجماً قد أثقلته الهموم وكان أريوجاد
معناً في شربه ملحاً في حديثه ، معلناً دائماً أنه أسعد

الناس ، ملحاً على زديج أن يجعل نفسه سعيداً مثله . ثم دفعته الخمر إلى نوم هادئ هنيء . وأنفق زديج ليلته مضطرباً أشد الاضطراب . وكان يقول لنفسه : ماذا ؟ لقد جن الملك وقتل ! إني لأرثي له أشد الرثاء . لقد مزقت الدولة ، وقاطع الطريق هذا سعيد يا للحظ ! يا للقضاء ! إن اللص لسعيد . وإن أجمل من صورت الطبيعة يمكن أن يكون قد مات أبشع الموت ، أو يكون قد كتبت عليه حياة شر من الموت ، أي أستارتيه ، لإلام صار أمرك ؟

فلما أسفر الصبح جعل يسأل كل من نقيه في القصر ، ولكن الناس جميعاً كانوا عنه في شغل فلم يرجع عليه أحد جواباً . وكان القوم قد أغاروا وغنموا أثناء الليل ، فكانوا يقتسمون الغنائم . وكل ما استطاع أن يظفر به في هذا الاضطراب والاختلاط هو الإذن له بالسفر ، فأسرع إلى الرحيل غارقاً في تفكيره الأليم .

ومضى زديج أمامه مضطرباً قلقاً ، قد شغل عقله بالبائسة أستارتيه وبملك بابل ، وبخليله كادور ، وباللص السعيد أربوجاد ، وتلك المرأة الجاحمة التي اختطفها البابليون على حدود مصر ، ثم كل المصاعب والمصائب التي ألحّت عليه .

الفصل السابع عشر

الصائد

فلما كان على مراحل من قصر أربوجاد وجد نفسه على شاطئ جداول صغير وهو يندب حظه ويرى أنه صورة صادقة للشقاء ولكنه رأى غير بعيد منه صائداً نائماً على الشاطئ ممسكاً في فتور ويبد كسلى شبكته التي كان كأنه يهملها وقد رفع عينيه إلى السماء وهو يقول :

— إنني لأشقى الناس جميعاً ، ما في ذلك شك . لقد كنت عند أهل بابل أعظم باعة الجبن الأبيض ، ثم حل بي الحراب . ولقد كانت زوجي أجمل امرأة أتيتحت لرجل وقد خانتني . وقد بقيت لي دار ضئيلة حقيرة ، فرأيتها تنهب وتدمر ، وأنا الآن لاجئ إلى كوخ صغير لا أجسد سبيلاً إلى الرزق إلا الصيد ، ولكن لا أظفر بسمكة واحدة . أيتها الشبكة لن ألتيك في الماء بل سألقي نفسي فيه .

ثم ينهض ويسعى في هيئة الرجل الذي يريد أن يلقي نفسه في الماء ليختم حياته .

قال زديج لنفسه : « ماذا ؟ أفي الناس من يعدل شقاؤهم شقائي ! » ثم كان نشاطه إلى إتقاذ هذا الرجل سريعاً كخاطره هذا . فيجري إليه فيمسكه ويسأله في لهجة يشيع فيها الرفق والحنان والتعزية . والناس يزعمون أن الشقاء يخف على الانسان إذا لم يكن وحيداً . ولكن مصدر ذلك فيما يقول زرادشت ليس هو الدهاء ، وإنما هي الحاجة ، فالانسان يشعر حينئذ بأنه مجذوب إلى إنسان شقي كما يجذب النظر إلى نظيره ، بحيث يصبح ابتهاج الرجل السعيد كأنه إهانة للبؤس . ولكن الشقيين إذا التقيا كانا أشبه بشجرتين تعتمد كل واحدة منهما على صاحبتهما فتبتان بذلك للعاصفة .

قال زديج للصيد : « لماذا تستسلم للشقاء ؟ » قال الصيد : « لأنني لا أجد لي منه مخرجاً ، لقد كنت أرفع الناس مكانة في قرية ديرلباك قريباً من بابل ، وكنت أصنع ، مستعيناً بامرأتي ، أجود ما في الدولة من الجبن الأبيض ، وكانت الملكة أستارتيه والوزير المشهور زديج يحبان هذا الجبن أشد الحب . وقد قدمت إلى قصرهما ستمائة قطعة منه . وذهبت ذات يوم إلى المدينة لأقبض الثمن ، فلما وصلت إلى بابل عرفت أن الملكة وزديج قد استخفيا . فأسرعت إلى قصر زديج ولم أكن عرفته قط .

ولذا أنا أرى جند صاحب الخزانة ومعهم أمر ملكي يتهبون
القصر ويدمرونه كأحسن ما يكون النهب والتدمير .
فأسرعت إلى مطبخ الملكة ، وهناك أنبأني بعض القائميين
على طعامها أنها ماتت ، وقال آخرون إنها في السجن ،
وزعم آخرون أنها لاذت بالفرار ، ولكنهم جميعاً أكدوا
لي أن ثمن الجبن لن يؤدي إليّ . فذهبت ومعني امرأتي إلى
الأمير أوركان ، وكان أحد عملائي ، وطلبت إليه أن يحميني
من هذه المحنة . ففتح حمايته لامرأتي ورفض أن يمنحني
إياها ، وكانت أنصع بياضاً من هذا الجبن الذي كان أصل
شقائي ، ولم يكن إشراق الأرجوان الذي تصدره مدينة
صور أشد بهجة مما كان يشرب بياضها من الحمرة ،
وهذا هو الذي أغرى أوركان باحتجازها وطردي من
قصره . فكتبت إلى امرأتي العزيزة رسالة من بلغ به
الحزن حد اليأس . فقالت لمن أدى إليها الرسالة : « إني
لا أعرف صاحبها ! لقد سمعت الناس يتحدثون عنه ،
يقال إنه يصنع جبناً متقناً ، فليحمل إليّ بعض هذا الجبن
وليؤدّ إليه ثمنه . »

« فلما اشتد بي الشقاء أردت أن ألقأ إلى القضاء ،
ولم يكن بقي لي إلا ستة مثاقيل من ذهب ، فلم يكن بد
من أن أدفع اثنين منها إلى رجل القانون الذي استشرته
واثنين للنائب الذي تولى قضيتي ، واثنين لأمين القاضي
الأول فلما فرغت من هذا كله لم تكن قضيتي قد

ابتدأت ، وكنت قد أنفقت من المال أكثر مما يساوي جبي
ومما تساوي امرأتي . فعدت إلى قريبي وأنا أريد أن أبيع
داري لأسترد امرأتي .

« وكانت داري تقوّم بستين مثقالاً من الذهب ،
ولكن الناس كانوا يرونني فقيراً حريصاً على البيع . فساومني
أول من عرضت عليه الدار ثلاثين مثقالاً ، وعرض علي
الثاني عشرين والثالث عشرة . وكنت مستعداً لإمضاء البيع
لكثرة ما كان يشغلني عن التبصر في أمري . ولكن أمير
أركانبا أقبل مغبراً على بابل ودمر في طريقه كل شيء ،
ونهب داري أول الأمر ثم أشعلت فيها النار .

« فلما فقدت مالي وامرأتي وداري أويت إلى هذه الأرض
حيث تراني ، وحاولت أن أعيش من صناعة الصيد .
ولكن السمك يسخر مني كما يسخر مني الناس فلا آخذ منه
شيئاً . وقد كاد الجوع أن يهلكني ، ولولا أنت أيها المعزي
الكريم لأغرقت نفسي في هذا النهر . »

لم يسق الصياد قصته هذه على نسق واحد ، فقد كان
زديج يقاطعه من وقت إلى وقت متأثراً محزوناً قائلاً :
« ماذا ؟ ألا تعلم شيئاً عن مصير الملكة ؟ » كان الصياد
يجيبه : « لا يا سيدي ! ولكني أعلم أن الملكة وزديج لم
يؤديسا إليّ ثمن الجبن ، وأن امرأتي قد أخذت مني ،
وأني قد صرت إلى اليأس . » قال زديج : « أنا أزعم
أنك لن تفقد مالك كله ، فقد سمعت الناس يتحدثون عن

زديج هذا وهو رجيل شريف ، وأنه إذا عاد إلى بابل كما يأمل أن يعود إليها لمؤد إليك أكثر مما لك عنده . أما امرأتك التي ليست على هذا الحظ من الوفاء فإني أنصح لك أن تتخذ مكانها زوجاً أخرى . صدقني وعد إلى بابل ، وسأبلغها قبل أن تصل أنت إليها ، فأنا فارس وأنت راجل . فإذا بلغت المدينة فاذهب إلى كادور المشهور وقل له إنك لقيت صاحبه في بعض الطريق ، وانتظرنى عنده حتى ألقاك . امض فعسى ألا تكون شقياً دائماً . »

ثم مضى زديج قائلاً « أيها القوي العظيم أورواماد انك لتسخرني لتعزيبه هذا الرجل : فمن عسى أن تسخر لتعزيبتي ؟ » قال ذلك ودفع إلى الصياد نصف المال الذي احتمله من بلاد العرب كلها ، وجعل الصياد الدهش السعيد يقبل رجليه ويقول « إنما أنت ملك منقذ . »

وكان زديج مع ذلك يطلب الأنباء ويذرف الدموع . قال الصياد : « ماذا يا سيدي ! أيمكن أن تكون شقياً إلى هذا الحد وأنت الذي يبذل المعروف ؟ » قال زديج : « إني لأشقى منك مئة مرة . » قال الصياد : « ولكن كيف يمكن أن يكون من يعطي أشد شقاء ممن يأخذ ؟ » قال زديج : « لأن معظم شقائك يأتي من الحاجة ، أما شقائي فصدره القلب . » قال الصياد : « أيمكن أن يكون أوركأن قد اغتصب منك زوجك ؟ » فأثارت هذه الكلمة في نفس زديج ذكرى مغامراته كلها . وجعل

يعدد ما ألمّ به من المصائب ، مبتدئاً بكلبة الملكة ومنتهاً
بوصوله إلى قصر أربوجاد . ثم قال للصيد : « إن
أوركان خليق أن يعاقب ، ولكن العادة جرت بأن أمثاله
هم أحسن الناس حظاً . ومهما يكن من شيء فامضِ إلى
قصر السيد كادور وانتظرنني هناك . » ثم افترقا . ومضى
الصيد يثني على حظّه ، وعاد زديج يلعن حظّه لعناً .

الفصل الثامن عشر

الباسليك

وانتهى زديج إلى مرج جميل ، فرأى جماعة من النساء يبحثن عن شيء ويعمن في البحث . فاستباح لنفسه أن يدنو من إحداهن وسألها : ألا يستطيع أن يشرف بمعونتتهن على التماس ما يبحثن عنه . قالت السورية : « إياك أن تفعل ، فإن ما نلتمسه لا ينبغي أن يمسه إلا النساء ! » قال زديج : « هذا شيء غريب ، هل لي أن أسألك عن هذا الذي لا ينبغي أن يمسه إلا للنساء ؟ » قالت : « إنه الباسليك . » قال زديج : « الباسليك يا سيدتي ! وفيم تبحثن عن الباسليك ؟ » قالت السورية : « إنما نبحث عنه لمولانا أوجول صاحب هذا القصر الذي تراه على شاطئ النهر في أقصى المرج ، فنحن إماؤه ، وقد أصابته علة فوصف له الطبيب الباسليك مطبوخاً في ماء

الورد . وهذا الحيوان نادر لا يستسلم إلا للنساء ، فقد أزعج مولانا أوجول أن يتزوج ممن تظفر له بالباسليك ، فدعني أبحث إن شئت ، فقد ترى ما أتعرض له إن ظفرت لإحدى صاحباتي من دوني بالباسليك . »

وقد ترك زديج هذه السورية وصاحباتها يبحثن عن الباسليك ، ومضى في المرج يسعى أمامه . حتى إذا بلغ شاطئ الجدول رأى سيدة أخرى مستلقية لا تبحث عن شيء ، وكان قدما يظهر فخماً وقد ألقى على وجهها نقاب ، وكانت منحنية نحو الجدول ترسل من فيها زفرات عميقة ، وقد أخذت بيدها عوداً صغيراً جعلت تخط به حروفاً على الرمل الدقيق المنبسط بين العشب والجدول . وقد أحس زديج الحاجة إلى أن يتعرف ما كانت هذه السيدة تخط من حروف ، فاندنا وتبين حرف الزاي ، ثم ظهر حرف الدال .. فأخذته رعدة . ولم يبلغ الدهش من أحد قط ما بلغه منه حين رأى الحرفين الأخيرين من اسمه .. فلبث ساعة ساكناً ، ثم قطع الصمت بصوت متهدج قائلاً « أيتها السيدة الكريمة ، عفوك عن غريب بائس إذا اجترأ فسألك بأي مصادفة مدهشة يجد هنا اسم زديج . » فلما سمعت السيدة هذا الصوت ، وهذه الألفاظ ، رفعت نقابها بيد مرتعدة ثم نظرت إلى زديج ، ثم صاحت صيحة فيها الحنان والدهش والفرح ، ثم صرعتها العواطف المختلفة التي

أخذت نفسها من كل وجه ، فخرت مغشياً عليها بين ذراعيه وكانت هذه السيدة هي أستارتيه : هي ملكة بابل ، هي التي كان زديج يعدها ويلوم نفسه على عبادتها ، هي التي بكى عليها ما بكى ، وخاف عليها ما خاف . فظل ساعة لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، وقد وجه لفظه إلى عيني أستارتيه اللتين كانتا قد أخذتا تفتحان في فتور وخجل وحنان . هنالك صاح زديج : « أيتها القوة الخالدة التي تدبر مصير الناس ، أيمكن أن تردتي إليّ أستارتيه ؟ في أي زمان ، في أي مكان ، في أي جبال ألقاها . » ثم جثا أمام أستارتيه ومرغ جبهته في التراب عند قدميها . فتنهضه ملكة بابل وتجلسه إلى جانبها على شاطئ الجدول ، ثم تمسح غير مرة عينيهما اللتين كانتا لا تجفان إلا لتستأنفا سكب الدموع . وكانت تستأنف عشرين مرة حديثها الذي كان يقطعه الأنين . وكانت تسأله عن المصادفة التي جمعت بينهما ، ثم تصرفه عن الرد عليها بأسئلة أخرى تلقيهما عليه . وكانت تبدأ قصة آلامها ، ثم تقطع ذلك لتعرف من آلام زديج ما كانت تجهل . ثم انتهيا آخر الأمر إلى تهدة ما سيطر على نفسيهما من اضطراب ، وقص زديج عليها في حديث موجز ما ألمّ به من الخطوب . ثم قال : « ولكن أيتها البائسة العزيزة كيف أتيح لي أن ألقاك في هذا المكان المنزل في زي الإماء مرافقة نساء أخريات يبحثن عن

الباسليك ليطيخ في ماء الورد تنفيذاً لأمر الطبيب ؟ »
قالت الحسناء أستارتيه :

- « سأدعهن يبحثن عن الباسليك ، وسأثبتك بكل ما احتملت وبكل ما أتجاوز عنه للأقدار بعد أن أتاحت لي لقاءك . لقد علمت أن الملك زوجي قد أنكر أن تكون أحب الناس إلى النفوس ، ومن أجل هذا أزمع ذات ليلة أن يشترك ويسمّي . وقد علمت كيف أذن الله للقرم الأخرس أن ينثني بما دبر الملك العظيم . ومسا كاد الوفي كادور يكرهك على أن تطيع أمري وتفر من بابل حتى دخل علي بعد أن نفذ إلى القصر من باب سري . ومن هناك اختطفني وذهب بي إلى معبد أورزماذ حيث خبأني أخوه الكاهن في جوف تمثال عظيم تستقر قاعدته عند أساس المعبد ، ويبلغ رأسه قبته . هنالك أقيمت كالمدفونة . ولكن الكاهن كان يخدمني ويوفر لي كل حاجاتي بحيث لم ينقصني شيء مما لا بد منه . ثم لم يسفر الصبح حتى دخل غرفتي صيدلي الملك يحمل شراباً مزاجه سم ناسع من البنج والأفيون والشوكران والحريق وخانق الذئب . وذهب موظف آخر إلى قصرك ومعه جبل من حرير أزرق ، فلم يوجد منا أحد . وأزمع كادور أن يتخذ الملك فأقبل اليه يشكوني ويشكوك ، وزعم أنك اتخذت طريقك إلى الهند ، وأني اتخذت طريقي إلى مصر . فأرسل السعاة في أثرك وفي أثري .

« وكان الدين يطلبونني لا يعرفونني ولم أكن قد
أظهرت وجهي قط إلا لك بمحضر من الملك وبأمره .
فضوا يطلبونني على هدى الصورة التي وصفت لهم
عليها ، فصادفوا على حدود مصر امرأة لها قامتي ولعلها
أن تكون أجمل مني . وكانت باكية هائمة فلم يشكوا
في أنها ملكة بابل ، فحملوها إلى مؤبدار . فلما رأى
الملك خطأهم أخذه غضب عظيم ، ولكنه تأمل ملامح
هذه المرأة ، فرأى جمالها وبهجتها ، فسكت منه الغضب
وأسرع إليه العزاء . وكانت هذه المرأة تسمى ميسوف
وقيل لي بعد ذلك أن هذا الاسم معناه عند المصريين
الجامحة الحسنة . وكانت جامحة حقاً ، ولكن مهارتها
لم تكن أقل من جموحها ، وقد أعجبت مؤبدار وتسلطت
عليه ، حتى أعلن أنها أصبحت له زوجاً . وهناك ظهر
خلقها كله ، فاندفعت في غير خوف إلى كل ما أوحى
إليها خيالها من آيات الجنون . وقد أرادت أن تكره عظيم
الكهنة ، وكان شيخاً كبيراً قد أخذه النقرس ، على أن
يرقص بين يديها ، فلما أبى اضطهدته أشد الاضطهاد .
وقد أمرت صاحب خيلها أن يصنع لها كعكة من الحلوى .
وقد اجتهد صاحب الخيل في أن يقنعها بأنه ليس صاحب
هذه الصناعة ، ولكنها أثبت إلا أن يطيع ، ثم عاقبته بعد
ذلك لأن كعكته أصابها بعض الحريق . وقد اختارت
قرمها لمنصب صاحب الخيل ، وجعلت سياسة الدولة إلى

أحد خدم القصر . وكذلك حكمت مدينة بابل ، وكان الناس جميعاً يذكرونني أسفين . أما الملك الذي كان رجلاً شريفاً مستقيماً إلى اليوم الذي أزمع فيه أن يقتلني ويشتمك . فكان يظهر كأنما أغرق فضيلته فيما استأثر به من حب عظيم للجامعة الحسنة . فلما كان يوم العيد المقدس سعى إلى المعبد ، ورأته جاثياً أمام التمثال الذي كنت أستخفي فيه وهو يستنزل عطف الآلهة على مسوف فرفعت صوتي صائحة به :

« إن الآلهة يأبون أن يسموا ملك أصبح طاغية، وهم أن يقتل امرأة عاقلة ليتزوج مكانها امرأة خرقاء . » وقد صدم مؤبदार بهذا الكلام حتى اختلط عقله . فكان الوحي الذي ألقته وطغيان مسوف كافين ليفقد الرجل صوابه فلم تمض أيام حتى انتهى إلى الجنون .

« وكان جنونه الذي رأى الناس فيه عقاباً من السماء أول بوادر الثورة . فثار الناس وطاروا إلى أسلحتهم ، وأصبحت بابل التي طال عهدا بالبطالة والترف ميداناً لحرب أهلية منكرة ، فأخرجت من جوف التمثال ووضعت على رأس أحد الأحزاب . وأسرع كادور إلى ممفيس ليردك إلى بابل . ولكن أمير أركانيسا لم يكده يعلم بهذه الأحداث حتى أقبل بجيشه ، فكون حزياً ثالثاً في بلاد الكلدانيين وقد هجم على جيش الملك فأسرع الملك إلى لقاءه في حماقة المألوفة ومعه مصريته الخرقاء . فقتل مؤبदार

مطعوناً ، وسقطت ميسوف بين أيدي المنتصرين . وأراد
سوء الحظ أن يأخذني أنا أيضاً جماعة من جند أركانيا
وأن أقاد أمام الأمير في نفس الوقت الذي قيدت إليه فيه
ميسوف . وقد يتملكك فيما أظن أن تعلم أن الأمير وجدني
أجمل من المصرية ، ولكن قد يسوءك أن تعلم أنه أضافني
إلى حريمه ، وقال لي في عزم وتصميم انه سيسعى إليّ
متى فرغ من غارة كان يريد أن يتمها ، فقدر ألي .
لقد انقطعت الأسباب بيني وبين مؤبدار ، وأصبح من
الممكن أن أقترن بزديج وهذه الأقدار تسلمني إلى أمير
متوحش . وقد أجبته مع كل الكبرياء التي تتيحها إليّ
متزتي وعواظي . لقد سمعت دائماً أن السماء تمنح أمثالي
من الناس مزية تتيح لهم إذا نطقوا بكلمة أو نظروا نظرة
أن يردوا إلى الضعة والاستخذاء كل جريء يحاول أن
يريدهم بسوء . وكنت أتحدث حديث الملكة . ولكني
عوملت معاملة الوصيفة فلم يلتفت الأركاني إليّ ، وإنما
قال لخصيه الأسود إنه يجذني وقحة ولكنه يراني حسناء .
ثم أمره أن يحسن العناية بي ويحملني على خطة الحظايا في
الطعام والشراب ، حتى يردني رخصة مشرقة ، وحتى
أصبح أهلاً لرضاه حين يتفضل فيمنحني قربه . وقد
أعلنت إليه أنني سأقتل نفسي ، فأجاب ضاحكاً أن الناس
لا يقتلون أنفسهم ، وأنه خير بهذا النحو من الإباء ،
ثم انصرف عني وكأنه رجل قد وضع بيقاء في حظيرته

التي خصصها لغرائب الحيوان . فإلى أي هوان دفعت أكبر ملكات الأرض ! بل إلى أي حال دفع هذا القاب الذي كان موقوفاً على زديج !
هنالك جثا زديج أمامها وبلل ركبتيها بدموعه . فأهضته أسنارتيه في حنان ومضت قائلة :

— « فكنت أرى نفسي أسيرة عند همجي متوحش ، وخصماً لامرأة مجنونة قد حبست معي . وقد حدثتني بقصتها في مصر . وقد عرفت من الملامح التي ذكرتها ومن وصف التجيب الذي كان يحملك ، ومن كل الظروف التي أحاطت بهذه القصة أن زديج هو الذي قاتل من أجلها . ولم أشك في أنك كنت مقياً في ممفيس ، فأزمنت أن آوي إليها . فقلت لها : « أيتها الحساء ميسوف إنك أنضرتني جمالاً ، وأقدر مني على تلهيبه أمير أركانيا . أعينيني على الهرب فسيصبح ذلك لك أن تتسلطي وحكك ، وأن تسعدي بالتخلص من منافسة . » وقد دبرت ميسوف معي وسيلة الهرب ، فانسلت ذات يسوم ومعني خادم مصرية .

« وكنت قد قاربت بلاد العرب ، ولكن قاطع طريق يسمى أربوجاد يعدو عليّ فيخطفني فيبيعي لبعض التجار ، ويحمني هؤلاء إلى هذا القصر الذي يقم فيه السيد أوجول . وقد اشترايني دون أن يعرف من أكون . وهو رجل صاحب لذة لا يعنيه إلا أن يعكف على الطعام ، وهو

يعتقد أن الله لم يخلقه إلا ليجلس إلى المائدة . وهو ضخم
قد تجاوزت ضخامته الحد حتى لتوشك أن تخنقه ، وليس
لطيبه عنده خطر إذا حسن هضمه لما يلتهم، ولكنه يحكمه
حكم الطاغية إذا أسرف على نفسه في الأكل . وقد ألقى
في روعه أنه سيبراً من علته إذا أكل الباسليك مطبوخاً في
ماء الورد . وقد وعد السيد أوجول بالزواج أي إمانه
تحمل اليه الباسليك . وها أنت ذا ترى أنني أتركهن يجهدن
في استحقاق هذا الشرف ، وما أعرف أنني زهدت في
الظفر بالباسليك بمقدار ما زهدت فيه منذ أذنت السماء لي
في أن ألقاك . »

ثم أفضى كل من العاشقين إلى صاحبه بكل ما توحيه
العواطف التي طال كبتها . وبكل ما تلهم الآلام والحب
للقلوب الكريمة من حنان نبيل ، ورفعت الأرواح الموكلة
بالحب حديثها حتى بلغت به فلك الزهرة .

وقد عاد النساء إلى القصر دون أن يجدن شيئاً . ومثل
زديج بين يدي أوجول متحدثاً إليه على هذا النحو :
« لتهيط العافية الخالدة من السماء لتعني بحياتك كلها . إنني
طبيب ، سمعت بعلتك فأسرعت إليك أحمل الباسليك مطبوخاً
في ماء الورد . ولست أطلب لذلك ثمناً أن أقترن بك ،
وإنما أطلب أن تعتق أمة شابة بابلية حملت إلى هذا القصر
منذ أيام ، وأنا زعيم أن أكون في مكانها من الرق إن لم
أشف الأمير العظيم أوجول . »

وقد قبل عرض زديج ، وسافرت أستارتيه إلى بابل
ومعها خادمة ، وقد وعدته بأن ترسل إليه في أقرب وقت
رسولاً ينثه بكل ما يجري في بابل من الأحداث . وكان
وداعها مفعاً بالحنان كما كان لقاؤهما .

وقد جاء في كتاب الزند العظيم أن ساعة اللقاء وساعة
الوداع هما أخطر ساعات الحياة وكان زديج يحب الملكة
مقدار ما كان يؤكد لها حبه ، وكانت الملكة تحب زديج
أكثر مما كانت تعلن إليه .

ثم قال زديج لأوجول : « سيدي إن الباسليك الذي
أحمله لا يؤكل وإنما تنالك خصائصه من طريق المسام .
وقد وضعته في قربة منفوخة مغطاة بجلد رقيق ، فيجب
أن تدفع هذه القربة بكل ما تقدر عليه من قوة وأن أردتها
عليك . وإذا أمضينا على هذا النحو أياماً قليلة فسرى
إلى أي حد يستطيع في أن يصل . » فلما كان اليوم
الأول وجد أوجول مشقة عظيمة في التنفس حتى ظن أنه
ميت من الإعياء . ولما كان اليوم الثاني تعب أقل من
أمس ونام أحسن مما نام أمس . ولم تمض أيام ثمانية حتى
استرد كل قوته وخفته ومرحه الذي ألفه في أعوامه
السعيدة . قال له زديج : « إنما لعبت بالكرة وأخذت
نفسك بالقناعة ، فتعلم أن الباسليك لا يوجد في الطبيعة ،
وأن صحة الانسان رهينة بالقناعة والتمرين وأن الفن الذي
يتيح للانسان أن يجمع بين الصحة والشهه إنما هو

فن خيالي يشبه حجر الفلاسفة وطوائع النجوم وسحر الكهان . »

وقد أحس طيبب أوجول بأن زديج قد أصبح خطراً بالقياس إليه ، فاتفق مع صيدلي القصر على أن يرسل زديج يلتمس الباسليك في العالم الآخر . وكذلك بعد أن عوقب زديج على إحسانه أصبح الآن معرضاً للموت لأنه أبرأ من العلة أميراً شهراً . وقد دعي إلى وليمة فاخرة . وكان قد تقرر أن يوضع له السم في الدور الثاني من أدوار المائة . ولكنه في الدور الأول تلقى كتاباً من الحساء أستارتيه ، فترك المائة ومضى لوجهه . وقد قال زرادشت العظيم « إن الانسان الذي تحبه غادة حسناء يتقن دائماً من المشكلات في هذه الحياة . »

الفصل التاسع عشر

المبارزة

كان استقبال الملكة في بابل مليحاً بالعطف على ملكة حسناء بائسة . وكانت بابل في ذلك الوقت تظهر هادئة مطمئنة ، فقد قتل أمير أركانيا في بعض المواقع ، وقرر البابليون المتصرون ان أستارتيه ستكون زوجاً للأمير الذي يختارونه ليكون لهم ملكاً . وقد أبوا أن يكون أرفع مكان في العالم وهو مقام الذي سيقترن بأستارتيه ويصبح ملكاً على بابل موضوعاً للدسائس والكيد ، فأقسموا ليملكن على أنفسهم أعظم الناس حظاً من الشجاعة والحكمة . وقد أنشئ على فراسخ من بابل ميدان عظيم أحاطت به مدرجات فخمة قد زينت أحسن زينة وأروعها ، وكان على المصطربين أن يذهبوا اليه مدججين بالسلاح ، وكان لكل واحد منهم من وراء المدرجات بيت يعتزل فيه فلا

براه أحد ولا يرى أحداً . وكان عليهم أن يطاعنوا بالرمح أربع مرات ، وكان على الذين يتاح لهم أن يقهروا أربعة فرسان أن يصطرعوا فيما بينهم ، حتى إذا أتيح لأحدهم أن ينتصر على خصومه جميعاً ويصبح سيد الميدان أعلن أنه هو الفائز في المسابقة ، ثم وجب عليه أن يأتي بعد أربعة أيام مدججاً بالسلاح ليحل الألغاز التي يعرضها عليه الكهان . فإذا لم يوفق لحلها لم يرق إلى العرش ووجب استئناف المباراة من جديد حتى تظفر المدينة بالمتصر الذي يقهر الخصوم في الميدان ، ويحل الألغاز أمام الكهنة ، لأن البابليين كانوا يرون ألا يملك عليهم إلا من كان شجاعاً حكيماً . وكان يجب أن تحرس الملكة في أثناء هذه الأيام حراسة شديدة دقيقة ، ولا يسمح لها إلا بأن تشهد المباراة وقد ألفت على وجهها نقاباً ، ولكن لا يؤذن لها أن تتحدث إلى أحد من المتنافسين حتى لا تكون مخابة ولا يقع جور .

بهذا كله كتبت أستارتيه إلى خليلها آملة أن يظهر في سبيلها من الشجاعة والذكاء ما لا يستطيعه أحد غيره . وقد وصل زديج إلى شاطئ الفرات قبيل ذلك اليوم العظيم ، وقد سجل شعاره بين شعار غيره من المتنافسين سائراً ووجهه مخفياً اسمه كما يقضي بذلك القانون . ثم ذهب إلى البيت الذي خصصته له القوعة ، وكان صديقه كادور قد عاد إلى بابل بعد أن بحث عنه في مصر بغير

طائل ، فأرسل إلى بيته لأمة كاملة كانت الملكة قد بعثت بها إليه وقاد إليه من عندها كذلك أجمل جواد من خيل فارس ، وقد عرف زديج الملكة في هديتها ، فاستمد من هذه المعرفة قوة وثقة وأملاً

فلما كان الغد أقبلت الملكة فجلست تحت مظلة يزيناها الجواهر واكتظت المدرجات بالسيدات وبالرجال من جميع الطبقات ، وظهر المتنافسون في الميدان . وأقبل كل واحد منهم فوضع شارته عند قدم الكاهن الأعظم . ثم أجريت القرعة بين الشارات فكانت شارة زديج هي الأخيرة . وكان أول من تقدم سيد يدعى إيتوباد ، وكان عظيم الثراء كثير الغرور قليل الشجاعة ، أخرق قليل العقل ، وكان خدمه قد ألقوا في روعه أن رجلاً مثله يجب أن يكون ملكاً . فأجابهم : « إن رجلاً مثلي يجب أن يملك » . فسلحوه من رأسه إلى قدمه . وكان يحمل لأمة مرصعة بالخضرة وعلامة خضراء ورمحاً تزينه شرائط خضر . وقد لاحظ الناس حين رأوا سياسته لفرسه أنه ليس هو الرجل الذي قدر له أن يستأثر بصولجان بابل ، وقد استطاع أول فارس سعى إليه أن يزعجه عن مكانه . واستطاع الثاني أن يكبه على عجز فرسه وقد ارتفعت ساقاه في الهواء وامتدت ذراعاها . وقد استطاع إيتوباد أن يستوي في سرجه ولكن على نحو غريب أضحك منه الناس جميعاً . وأقبل الثالث فلم يتكلف استعمال رمحه وإنما

مر إلى جانبه فأخذه من ساقه اليمنى وألقاه على الرمل
إلقاء : وأسرع ساسة الميدان إليه ضاحكين فردوه إلى
سرجه ، ولكن المبارز الرابع يأخذه من ساقه اليسرى ويلقيه
على الرمل من ناحيته الأخرى ، ثم قيد تشيعه السخرية إلى
بيته حيث كان يجب أن ينفق الليل بحكم القانون . وكان
يقول وهو يسعى ظالماً : « أي مغامرة بالقياس إلى رجل
مثلي ! »

وأدى الفرسان الآخرون واجبههم كأحسن ما استطاعوا ،
فكان منهم من هزم مبارزين متتابعين ومنهم من وصل إلى
أن يهزم ثلاثة . ولم يتنصر على أربعة إلا أمير أوتام ثم
برز زديج فأزعج عن خيلهم فرساناً أربعة في كل رشاقة
ممكنة . ولم يبق إلا أن يعرف أيهما سيكون له الفوز :
الأمير أوتام أم زديج . وكان الأول يحمل لأمة زرقاء
مذهبة وعلامة من لونه ، وكانت لأمة زديج بيضاء
وكانت أماني الناس كلهم مقسمة بين الفارس الأزرق
والفارس الأبيض . وكان قلب الملكة يخفق . وكانت تتوسل
إلى السماء لتنصر اللون الأبيض .

وقد تبادل الفارسان الكر والفر في خفة ورشاقة وتبادلا
طعنات رائعات بالرمح ، وكانا جميعاً ثابتين في سرجيهما .
حتى تمنى الناس كلهم إلا الملكة أن يكون لبابل مكان .
ثم أجهد الفرسان وانحطم الرمحان ، فعمد زديج إلى هذه
الحيلة وهي أنه أسرع فاستدبر جواد الفارس الأزرق ثم

وثب فأصبح رديفه على فرسه، ثم أخذه من خصره فانترعه من سرجه وألقاه على الأرض؛ ثم يأخذ مكانه من السرج ويدور حول أوتام الملقى صريعاً على الأرض. هنالك ضجت المدرجات كلها: « الفوز للفارس الأبيض! » ويستأثر الغضب بأوتام فينهض ويستل سيفه، ويثب زديج عن فرسه والسيف مصلت في يده، وهما هذان في الميدان يختصمان خصومة تنتصر فيها القوة مرة والخفة مرة أخرى، وقد أخذ ريش خوذتيهما ومسامير مغفريهما وخرز درعيهما تنطير إلى بعيد لعنف ما كانا يتبادلان من الضربات، وكلاهما يضرب بحد السيف وعرضه عن يمين وعن شمال، على الرؤوس وعلى الصدور، وهما يتأخران ويتقدمان، ثم يتبادلان التحدي، ثم يلتحمان، ثم يأخذ كل منهما بصاحبه ثم ينعطفان كأنهما الحيتان، ثم يهجم كل منهما على صاحبه كأنه الأسد، والنار تنطير في كل لحظة من وقع ضرباتهما. ثم يثوب زديج إلى نفسه ساعة فيقف ثم يختال ثم يمر إلى جانب أوتام فيلقيه على الأرض ويجرده من سلاحه، ويصيح أوتام: « أيها الفارس الأبيض أنت وحدك أهل لعرش بابل. »

وقد بلغ الفرع بالملكة أقصاه. ثم يقاد الفارس الأزرق والفارس الأبيض كل إلى بيته شأن المتنافسين جميعاً كما قضى بذلك القانون. وأقبل خدم خرس يحملون إليهم الطعام...

وتستطيع أن تقدر أن قزم الملكة الأخرس هو الذي حمل
الطعام إلى زديج . ثم خُلي بينهما وبين النوم ليقبل المتسمر
إذا كان الغد فيحمل شارته إلى الكاهن الأعظم ليمتحنها
ويعرف صاحبها .

وقد نام زديج وإن كان عاشقاً ، لأن الجهد كان قد
بلغ منه غايته . أما إيتوباد الذي كان بيته قريباً من بيت
زديج فلم يم ، وإنما نهض أثناء الليل ودخل بيت زديج
فأخذ لأمته البيضاء وشارته وترك له لأمته الخضراء . فلما
ذر قرن الشمس ذهب إلى الكاهن الأعظم وأعلن إليه أن
رجلاً مثله هو الفائز ، ولم يكن الناس ينتظرون ذلك ،
ولكن فوزه أعلن على حين كان زديج لا يزال مغرقاً في
نومه ، وقد عادت أستارتيه إلى بابل دهشة قد ملأ الأمل
قلبيها ، وكانت المدرجات قد كادت تخلو من النظارة حين
استيقظ زديج فالتمس سلاحه فلم يجد إلا هذه الآلة
الخضراء ، فاضطر إلى أن يدخل فيها لأنه لم يجد شيئاً آخر
يستر به جسمه وقد لبس هذا السلاح دهشاً مغضباً وتقدم
في أدائه الغريبة هذه .

وجعل كل من بقي في المدرجات والميدان يستقبلونه
ساخرين منه يحيطون به ويواجهونه بالإهانة .. ولم يلق
أحد قط مثل ما لقي من الإهانة المخزية ، ففقد صبره
وفرق الناس عنه بسيفه ، ولكنه كان حائراً لا يدري
ماذا يصنع . لم يكن يستطيع أن يرى الملكة ، ولم يكن

يستطيع أن يطالب بلأتمته البيضاء التي سرقت منه ، فلو قد فعل ذلك لفضح سر الملكة . وكذلك اجتمع عليه الألم والغضب والقلق ، وجعل يمشي على شاطئ الفرات ممتنعاً بأن القضاء قد كتب عليه شقاء محتوماً لا مخرج منه ، مستعرضاً في نفسه مصائبه كلها من المرأة التي كانت تكره العور إلى نكبته في سلاحه وكان يقول لنفسه : « هذا جزائي لأنني استيقظت متأخراً . ولو قد نمت أقل مما نمت لأصبحت ملك بابل وزوج أستارتيه . وإذن فالعلم والأخلاق والشجاعة لم تنته بي إلا إلى الشقاء » . ثم أفلت منه شيء من الاعتراض على القدرة الإلهية ، وكان يؤمن بأن العالم خاضع لقضاء قاس يظلم الأختيار ويسبغ النعمة على الفرسان الخضر . وكان مما يحزنه اضطراره الى حمل هذه اللأمة الخضراء التي عرضت صاحبها لكثير من السخرية . وما هي إلا أن يمر به بعض الباعة فيبيعه سلاحه بثمان نحس ويشترى منه ثوباً وقلنسوة . ويمضي في هذا الزي مصاحباً شاطئ الفرات ناعياً على القدرة الإلهية أنها تظلمه دائماً .

الفصل العشرون

الناسك

وقد لقي في طريقه ناسكاً قد انتشرت لحيته على صدره ،
وتدلت حتى بلغت حزامه . وكان في يده كتاب يقرأ فيه
معنياً أشد العناية . فوقف زديج وانحنى له في اجلال .
وقد رد الناسك تحيته في وقار ورفق ، حتى رغب زديج
في أن يتحدث إليه فسأله في أي كتاب تنظر ؟ قال
الناسك : « هو كتاب القدر ، أتريد أن تقرأ فيه شيئاً ؟ »
ثم وضع الكتاب في يد زديج الذي جعل ينظر فيه دون أن
يتبين حرفاً من حروفه على علمه المتقن بكثير من اللغات ،
وكان هذا سبباً في ازدياد حبه للاستطلاع . قال له هذا
الأب الرحيم : « إني لأراك شديد الحزن . » قال زديج :
« واحسرتاه ما أكثر ما يحزنني ! » قال الشيخ : « أماذن
في أن أصحبك لعلّي أن أنفعك ؟ فقد استطعت أحياناً أن
أشبع الغراء في نفوس البائسين . » وقد أحس زديج شيئاً

من الاحترام لمظهر الناسك وحيته وكتابه ، ووجد في حديثه نوراً ممتازاً ، وكان الناسك يتحدث عن القضاء والعدل ، والأخلاق ، والخير الأعظم ، وضعف الانسان والفضيلة والرذيلة ، في بلاغة قوية مؤثرة ، حتى أحس زديج كأنما يجذبه اليه سحر لا يقهر . فألح عليه في ألا يتركه حتى يبلغ بابل . قال الشيخ : « إني أطلب اليك هذا الفضل . فأقسم لي بأوروزماد ألا تفارقتني إلى أيام مها أفعال . » فأقسم زديج ومضيا معاً .

وانتهى المسافران مع المساء إلى قصر فخم ، وهناك طلب الناسك الضيافة لنفسه وللشاب الذي يصحبه ، فأدخلهما البواب الذي كانت تظهر عليه شارات السيادة إلى القصر في شيء من العطف المستخف . ثم قدما إلى رئيس الخدم ، فأظهرهما على جناح صاحب القصر ، ثم أذن لهما بشيء من المائدة ، وأجلسا في أقصاها دون أن يتزل صاحب القصر فيمنحها طرفه ، ولكنها طعاما كما طعم غيرهما ، وأمر الخدم لهما رقة وسماحة وسخاء ثم قدم اليهما لغسل أيديهم طست من الذهب مرصع بالزمررد والياقوت . ثم قيلا إلى حجرة جميلة أنفقا فيها الليل ، فلما كان الغد أقبل خادم فدفع إلى كل واحد منها قطعة من ذهب ثم صرفهما .

فلما كانا في الطريق قال زديج : « نَحِيلُ إِلَى أَنْ صَاحِبَ الْقَصْرِ رَجُلٌ كَرِيمٌ وَإِنْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كِبْرِيَاءٍ ،

وهو على كل حال حسن الضيافة . « وبينما كان يقول هذا الكلام رأى جيباً عريضاً كان يحمله الشيخ وقد انتفخ انتفاخاً عظيماً ، فلما نظر تبين الطست الذهبي المرصع بالجوهر ، وقد سرقه الشيخ . فلم يجزؤ أول الأمر على أن يقول شيئاً ، ولكنه كان في دهش مؤلم .

فلما انتصف النهار وقف الشيخ أمام دار صغيرة كان يسكنها رجل غني بخيل ، فاستضافه ساعات من نهار ، فتلقاهما خادم شيخ أشعث لقاء خشناً ، ثم قادهما إلى الإسطبل ، وقدم اليهما شيئاً من زيتون فاسد وخبزاً رديئاً وجعة حامضة . فأكل الناسك وشرب راضياً عن طعامه الغليظ ، كما رضي أمس عن طعامه ذاك الرقيق ، ثم اتجه إلى الخادم الشيخ الذي كان يراقبهما ليرى لعلهما يسرقان شيئاً وليستحتهما ، الرحيل ، فوضع في يده الدينارين اللذين تلقاهما مصباحاً ، وشكر له عنايته بهما . ثم قال : « أرجو أن تتيح لي التحدث إلى سيدك » فأدخلها الخادم دهشاً . قال الناسك : « أيها السيد العظيم ، ليس يسعني إلا أن أشكر لك في خضوع نبل لقائك لنا ، فنفضل بقبول هذا الطست الذهبي آية على اعترافي بالجميل . وقد كاد البخيل يصرع من الدهش . ولم يتح له الناسك أن يفيق من دهشه ، وإنما مضى مسرعاً يتبعه صاحبه الشاب . قال زديج : « ما هذا الذي أراه يا أبت ؟ ما أرى أنك تشبه غيرك من الناس ، إنك تسرق طستاً

ذهيباً من أمير تلقانا أحسن اللقاء وتبته لبخيل عاملك أحقر
 المعاملة ! » قال الشيخ : « تعلم يا بني أن هذا الأمير
 العظيم الذي لا يستقبل الناس إلا غروراً ليطهرهم على
 ثرائه سيصبح منذ اليوم عاقلاً حذراً . وسيعود البخيل
 أن يكون مضيافاً فلا تدهش لشيء واتبعني . » فلم يدر
 زديج أيصحب أعظم الناس حظاً من الجنون أم أعظمهم
 حظاً من الحكمة . ولكن الناسك كان يتحدث في ثقة
 وكان زديج مرتبباً بقسمه فلم يسعه إلا أن يتبع الشيخ .
 فلما كان المساء بلغا داراً متمنة البناء ، ولا يظهر عليها
 ما يدل على الإسراف ولا ما يدل على البخل . وكان صاحب
 الدار فيلسوفاً قد اعتزل الناس وعكف على الحكمة والفضيلة .
 وكان على ذلك لا يحس مللاً ولا سأمًا . وكان قد راقه أن
 يقيم هذه الدار ، وأن يستقبل فيها الغرباء لا مستعلباً ولا
 مغروراً ، فسعى من تلقاء نفسه إلى السائحين وقادهما إلى
 حجرة وفيرة ليستريحا . ثم أقبل بعد حين فدعاهما إلى
 مائدة نظيفة وطعام متقن ، وتحدث إليهما رفيقاً متحفظاً
 عن الثورة الأخيرة التي اضطربت لها بابل . وقد ظهر
 أنه مخلص للملكة أشد الإخلاص ، وأنه كان يتنى لو
 ظهر زديج في الميدان واستبق مع المستبقين ليظفر بالتاج .
 ثم قال : « ولكن الناس لا يستحقون أن يملك عليهم
 رجل مثل زديج » . وكان زديج يحمر خجلاً ويشعر بأن
 آلامه تتضاعف . وقد اتفق القوم أثناء الحديث على أن

الأشياء في هذا العالم لا تجري على ما يحب الحكماء ، وقد أكد الناسك دائماً أن الناس لا يعرفون طريق القدرة الإلهية ، وأنهم يخطئون حين يحكمون على كلِّ ما لا يعرفون إلا أيسر أجزائه .

ثم تحدثوا عن الشهوات فقال زديج : « ما أشد خطرها ! » قال الناسك : « إنما الشهوات هي الرياح التي تنشر قلاع السفينة ، وهي تُغرق السفينة أحياناً ، ولكن السفينة لا تستطيع أن تجري من دونها . إن المرارة تدفع الإنسان إلى الغضب ، وقد تجلب عليه العلة ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بدونها . كل شيء في هذه الأرض خطر ، وكل شيء في هذه الأرض ضروري لا بد منه . » ثم تحدثوا عن اللذة وأثبت الناسك أنها منحة من الآلهة ، قائلاً : « إن الإنسان لا يستطيع أن يعطي الحس ولا الفكرة ، وإنما يتلقى كل شيء ، تأتيه اللذة والألم من غيره كما يأتيه شخصه هو . »

وكان زديج يعجب حين يرى رجلاً قد أتى تلك الأعمال الغريبة يفكر على هذا النحو الدقيق . فلما أخذ القوم يحظهم من سمر ممع لذيد قاد المضيف ضيفه إلى حجرتهما شاكرًا الله أن أرسل إليه رجلين على هذا الحظ من الحكمة والفضيلة . ثم قدم إليهما شيئاً من مال بطريقة سمحة كريمة لا تؤذي النفوس . فاعتذر الناسك وودّع مضيفه زاعماً أنه يريد أن يسافر إلى بابل قبل أن

يشرق النهار . وكان وداعهم رقيقاً ، وكان زديج يشعر بشيء من الاحترام لهذا الرجل الحبيب إلى القلوب .

فلما صار الناسك وصاحبه في حجرتهما أنثياً ثناءً جميلاً على مضيفتهما . ثم أيقظ الشيخ رفيقه من آخر الليل قائلاً له « يجب أن نرحل . ولكنني أرى قبل أن يستيقظ الناس أن أترك لهذا الرجل آية على ما أضمر له من حب وإكبار . » قال ذلك وأخذ مصباحاً فأشعل النار في الدار . وقد روع زديج فجعل يصيح ، وهمّ أن يمنع الشيخ من اقرار هذا الإثم المنكر . ولكن الناسك كان يجذبه بقوة لا تقاوم على حين كانت الدار تشتعل ، والناسك ينظر إليها من بعيد في هدوء أي هدوء قائلاً : « الحمد لله هذه دار مضيفي قد دمرت تدميراً . ما أسعد هذا الرجل ! » فلما سمع زديج هذا الكلام همّ أن يضحك وأن يضرب الشيخ وأن يسبه وأن يمضي لوجهه . ولكنه لم يصنع من ذلك كله شيئاً ، وإنما خضع لسلطان الناسك وتبعه كارهاً إلى المرحلة الأخيرة

وقد انتهت بهما هذه المرحلة إلى أرملة محسنة فاضلة ، يعيش معها فتي قريب لها في الرابعة عشرة من عمره ، وكان جميلاً محبباً وكان أمهها الوحيد ، وقد ضيفتهما كأحسن ما استطاعت ، فلما كان الغد أمرت قريبها أن يصحب المسافرين إلى جسر قد قطع منذ حين فأصبح عبوره خطراً على الذين لا يعرفونه . ومضى الفتي أمامهما خفياً

بهما . فلما بلغوا الجسر قال الناسك للفتى « أقبل فإنني أريد أن أشكر لعمتك صنعها . » ثم يأخذ بشعره ويلقيه في النهر . ويسقط الفتى ثم يطفو ثم يستخفي في لجة الماء . هنالك لم يستطع زديج صبراً فصاح : « يا لك من وحش ! يا لك من مجرم لم ير الناس مثله ! » قال الناسك : لقد وعدتني أن تصبر على ما ترى . فتعلم أن تحت هذه الدار التي دمرتها القدرة الإلهية كترأ عظيماً قد ظفر به صاحبها وتعلم أن هذا الفتى الذي قتلته القدرة الإلهية لو عاش لقتل عمته بعد عام ، ولقتلك أنت بعد عامين . » قال زديج : « من أنباك بهذا أيها الهمجي ؟ وهبك قرأت هذا في كتابك أمن حقلك أن تقتل صبيلاً لم يسيء إليك ؟ »

وبينما كان البابي يتكلم نظر فإذا الشيخ فقد لحيته وظهرت على وجهه ملامح الشباب ، وقد زال عنه ثوب الناسك ونبتت في جسمه المهيب أجنحة أربعة . قال زديج ، وهو يحثو : « أي رسول السماء أيها الملك الإلهي فأنت إذن قد هبطت من أعلى علينا لتعلم انساناً ضعيفاً هالكاً أن يدعن لسلطان القضاء الخالد » قال الملك جسراد « إن الناس ليقولون في كل شيء دون أن يعلموا شيئاً ، وقد كنت أشد الناس حاجة إلى أن تتعلم » فاستأذنه زديج في أن يتكلم : « إني أهتم نفسي . ولكن أأجرؤ على أن أسألك أن تجلسو لي شكراً يقوم بنفسي ؟ أم

يكن إصلاح هذا الصبي وتقويمه خيراً من إغراقه ؟ »
 قال جسراد : « لو قد أتيح له أن يكون خيراً وأن يعيش
 ويتخذ زوجاً لقتل وقتلت معه وزوجه وقتل معها ابنها . »
 قال زديج : « ماذا ؟ أليس من الجريمة والشقاء بد ؟
 أليس بد من أن يلم الشقاء بالأخيار ؟ » قال جسراد :
 « إن الأشرار أشقياء دائماً ، وإنهم محنة تمتحن بهم قلة من
 الأخيار مفرقة في الأرض ، وليس من شر إلا وهو مصدر
 للخير . » قال زديج : « وما يمنع أن يوجد الخير ولا
 شر معه ؟ » قال جسراد : « إذن لتبدل الأرض غير
 الأرض وتتابع الأحداث على أسلوب آخر من الحكمة .
 وهذا الأسلوب من الحكمة الكاملة لا يمكن أن يوجد إلا
 في الملأ الأعلى حيث لا يستطيع الشر أن يرقى . وقد خلق
 الله ما لا يعين من العوالم ليس منها واحد يشبه الآخر .
 وهذا الاختلاف العظيم آية على قدرته التي لا حد لها ،
 فليس من ورقتين في الأرض ولا كرتين في حقل السماء
 تشبه إحداهما الأخرى . وكل ما تراه على هذه الذرة
 الضئيلة التي ولدت عليها قد قدر له مكانه تقديراً حسب
 النظام الثابت الذي أبدعه القادر على كل شيء . إن الناس
 يظنون أن هذا الصبي الذي هلك قد سقط في الماء مصادفة ،
 وأن المصادفة نفسها هي التي حرقت الدار ، ولكن المصادفة
 لا وجود لها ، فكل شيء إما امتحان ، وإما عقاب ،
 وإما مكافأة ، وإما احتياط . تذكر ذلك الصياد الذي

كان يرى نفسه أشقى الناس ، لقد أرسلك أورواماد لتغير
مصيره . أيها الهالك الضعيف لا تعرض على من يجب أن
يعبد . « قال زديج : « لكن ... » وبينما كان يقول
« لكن » كان الملك يرتقى في السماء العاشرة . فجثا زديج
ورفع إلى القدرة الإلهية عيادته وإذعانه . قال له الملك من
أعلى السماء : « أسلك طريقك إلى بابل »

مكتبة مورد الأثرية
www.books4all.net

الفصل الحادي والعشرون

الأغاز

مضى زديج في طريقه هائماً ، وقد خرج عن طوره كرجل سقطت الصاعقة منه غسبر بعيد . فدخل بابل في اليوم الذي اجتمع فيه المتنافسون في جيو من أهساء القصر ليمتحنوا بتفسير الأغاز ، وليجيبوا على أسئلة الكاهن الأعظم . وقد اجتمع الفرسان جميعاً إلا صاحب الأمة الخضراء . فلم يكذ زديج يظهر في المدينة حتى اجتمع الشعب من حوله ، ولم تكن العيون تشبع من النظر إليه ، ولم تكن الأفواه تكف عن الثناء عليه ، ولم تكن القلوب تكف عن أن تمنى له الملك . وقد رآه الحسود فارتعش وحوال وجهه ، ثم حمله الشعب إلى مكان الاجتماع . وأثبتت الملكة مقدمه فتنازعتها الحوف والرجاء ، وكان القلق ينهب نفسها نهياً ، ولم تكن تفهم لماذا كان زديج مجرداً من سلاحه ولا لماذا كان ليرتباد بحمل الأمة البيضاء .

فما رأى المجتمعون زديج ارتفع بينهم ضجيج مختلط . وكان المجتمعون دهشين سعداء لمحضره . ولكن لم يكن يؤذن إلا للفرسان الذين شاركوا في المباراة بشهود الاجتماع . قال زديج : « لقد بارزت كما بارز غيري ، ولكن رجلاً غيري يحمل سلاحي في هذا المكان ، وإلى أن يتاح لي الشرف بإثبات ذلك أرجو أن يؤذن لي بالمشاركة في تفسير الألغاز . » وأخذت الأصوات فلم يتردد أحد في قبوله لأن أمانته وصدقه وشرفه كانت لا تزال مستقرة في القلوب .

وقد بدأ الكاهن الأعظم فألقى هذا السؤال : « ما شيء هو أطول الأشياء في العالم وأقصرها ، وأسرع الأشياء وأبطأها ، وأشد الأشياء استعداداً للانقسام وأشدّها امتداداً ، وأشد الأشياء تعرضاً للاهمال وأشدّها تعرضاً للحزن عليه ، وبغيره لا سبيل إلى أن يصنع شيء ، وهو يزدرد كل ما هو صغير ، ويحبي كل ما هو كبير ؟ »

وكان على إيتوباد أن يتكلم ، فأجاب أن رجلاً مثله لا علم له بالألغاز وحسبه أنه انتصر برمحه . قال بعض المتنافسين إن جواب اللغز إنما هو الحظ . وقال بعضهم هو الأرض . وقال بعضهم هو النور . وقال زديج إنه « الزمان » ليس شيء أطول منه لأنه مقياس الأبد ، وليس شيء أقصر منه ، لأنه يقصر عن آماننا . وليس شيء أبطأ منه للمتظر ، وليس شيء أسرع منه للمبتهج ،

وهو يمتد في السعة إلى ما لا نهاية ، وينقسم في الصغر إلى ما لا نهاية ، والناس جميعاً يهملونه ، والناس جميعاً يأسفون على ضياعه ، لا يصنع شيء بدون به ، وهو ينسى ما لا يستحق الخلود ، ويخلد جلائل الأعمال . فأجمع القوم على أن زديج قد أصاب .

ثم سئل بعد ذلك : « ما شيء يقبل ولا يشكر معطيه وينعم الناس به دون أن يعرفوا كيف ينعمون به ، ويعطونه غيرهم دون أن يعرفوا أين هم منه ، ويفقده الناس على غير وعي منهم ؟ » .

فأدلى كل بجوابه ، وقال زديج إنه « الحياة » . وفسر سائر الألفاظ على هذا النحو من اليسر ، وكان إيتوباد يقول : « ليس شيء أيسر من هذه الألفاظ ، ولو قد أراد لأجاب عليها في غير مشقة . » وقد ألفت أسئلة حول العدل والخير الأعظم وفن الحكم ، فكانت أجوبة زديج أقوم الأجوبة . وكان الناس يقولون من حوله إن مما يحزن حقاً أن يكون صاحب هذا العقل الممتاز فارساً غير ممتاز .

قال زديج : « أيها السادة العظام ! لقد شرفت بالانتصار في الميدان ، وإنما الأمة البيضاء هي لأمتي ، وقد أخذها السيد إيتوباد أثناء نومي . وقد رأى في أكبر الظن أنها أليق به من لأمته الخضراء . وإني مستعد أن أثبت أمامكم بثوبي هذا ، وسيفي ، على رغم كل ما

حمل هو من هذه اللأمة البيضاء التي اختلسها مني ، أني
 أنا الذي انتصر على الأمير أوتام . «
 وقد قبل إيتوباد هذا التحدي واثقاً بنفسه أعظم الثقة ،
 ولم يكن يشك في أنه وقد حمل الخوذة والدرع والمغفر
 سيستصر في غير عناء على خصم ليس عليه إلا ثوب وقلنسوة .
 وقد استل زديج سيفه وحيا الملكة التي كانت تنظر إليه
 يتنازعها الفرح والخوف . واستل إيتوباد سيفه ولم يحيي
 أحداً . ثم تقدم إلى زديج كما يتقدم رجل لا يهاب شيئاً .
 وكان يوشك أن يشدخ رأسه وقد اتقى زديج هذه
 الفسرية معارضاً بقوة سيفه ضعف خصمه ، بحيث انكسر
 سيف إيتوباد . هنالك هجم زديج على خصمه فأخذ بتلاييه
 وصرعه على الأرض ، ثم أنفذ ذبابة سيفه من ثنابا الدرع
 قائلاً له : « دعني أجردك من سلاحك وإلا قتلتك . »
 وقد دهش إيتوباد لسوء الحظ الذي ألمّ برجل مثله ،
 ونطى بين زديج وبين سلاحه وقد بدأ فترع خوذته ، ثم
 درعه الفخمة ، ثم مغفره ، ثم ليس هذا كله وجرى في
 لأمته هذه حتى جثا عند قدمي أستارتيه وأثبت كادور
 في سهولة أن هذه اللأمة هي لأمة زديج فنودي به ملكاً
 عن رضا من الناس جميعاً . وخاصة من أستارتيه التي
 نعمت بعد كثير من الشقاء بأن ترى عاشقها خليفاً في
 رأي العالم كله أن يصبح لها زوجاً . وعاد إيتوباد إلى
 قصره حيث بدعوه خدمه مولاي ، وأصبح زديج ملكاً

وأصبح سعيداً . وكان يتمثل في نفسه ما قال له الملك
جسراد : بل تذكر حبة الرمل التي أصبحت ماسة . وقد
شكرت الملكة وشكر هو للآلة هذا الفضل . وترك زديج
الجاجة الجميلة ميسوف تطوف في أقطار الأرض وأرسل
يدعو قاطع الطريق أربوجاد فرفعه إلى مرتبة حسنة في
جيشه ، ووعدته بأن يرفعه إلى أرقى المراتب إن سار سيرة
الجندي الشريف ، وأن يشنقه إن عاد إلى قطع الطريق .
ودعا سيتوك مع ألوينا الحسناء من أعماق بلاد العرب ،
فجعلها على تجارة بابل . وأنزل كادور منزلة ثلاثم بلاءه
ووفاه فأصبح صديق الملك ، وأصبح زديج هو الملك
الوحيد الذي استطاع بين ملوك الأرض أن يكون له صديق
مخلص . ولم ينسَ زديج القزم الأخرس . ومنح الصياد
داراً جميلة . وقضى على أوركأن أن يؤدي إليه مقداراً
ضخماً من المال وأن يرد إليه امرأته ، ولكن الصياد وقد
صار حكيماً أبى أن يأخذ إلا المال .

ولم تتعز سبير الحسناء من خطئها حين ظنت أن زديج
سيصبح أعور ، ولم تكف أزورا عن البكاء لأنها همت
ذات يوم أن تجدع أنفه . وقد خفف زديج ألمها بما
أهدى إليها من الهدايا . ومات الحسود غيظاً وخزيماً ،
واستمتعت الدولة بالسلم والمجد والرخاء . وكان هذا العصر
أجمل عصر عرفته الأرض ، فقد حكمها فيه الحب
والعدل . وكان الناس يحمدون زديج ، وكان زديج

يشي على الآلهة .

وهنا تنتهي المخطوطة التي تقص تاريخ زديج .
والناس يعلمون أنه تعرض لمغامرات كثيرة
أخرى قد سجلت تسجيلاً دقيقاً ، فارجو
أن ينشرها المستشرقون إن وصلت إليهم .

مكتبة سور الأثرية
www.books4all.net

فهرس لسفء

صفءة	
٥	مقدمة
	رسالة إهداء قصة زديب من سعدي إلى السلطانة شعرا
١١	
١٤	١ . الأور
١٩	٢ . الأنف
٢٢	٣ . الكلب والجراد
٢٨	٤ . الحسود
٣٥	٥ . الكرم
٣٩	٦ . الوزبر
٤٥	٧ . الاستقبالات والحصومات
٥٠	٨ . الغرة
٥٧	٩ . المرأة المضروبة

٦٢	١٠ . الرق
٦٧	١١ . التحريق
٧١	١٢ . العشاء
٧٧	١٣ . الموعد
٨١	١٤ . الرقص
٨٦	١٥ . العيون الزرق
٩١	١٦ . قاطع الطريق
٩٦	١٧ . الصائد
١٠٢	١٨ . الباسليك
١١٣	١٩ . المباراة
١٢٠	٢٠ . الناسك
١٢٩	٢١ . الألفاظ

مكتبة سواد الأبيجة
www.books4all.net

